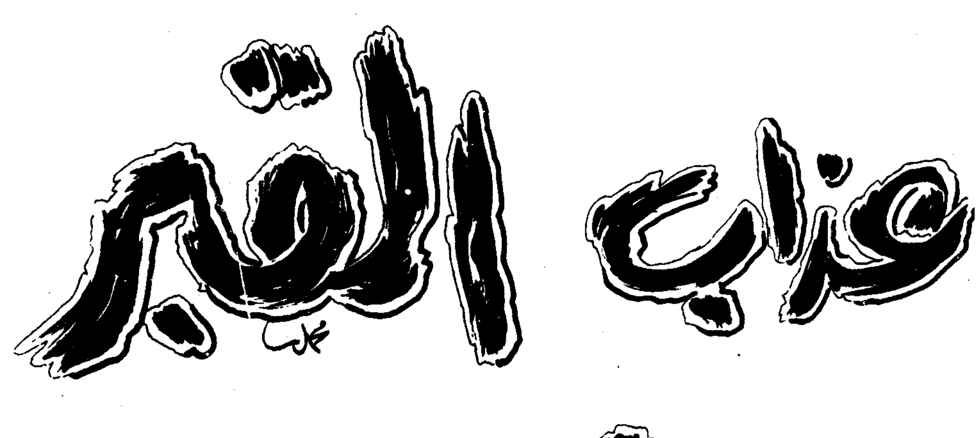
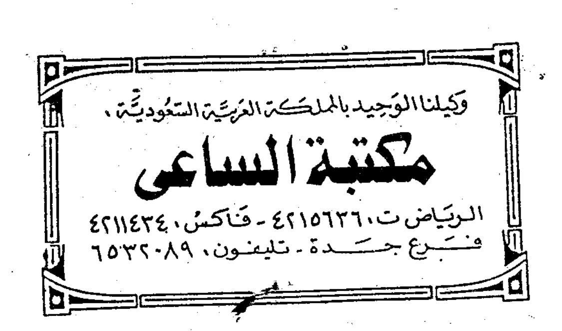
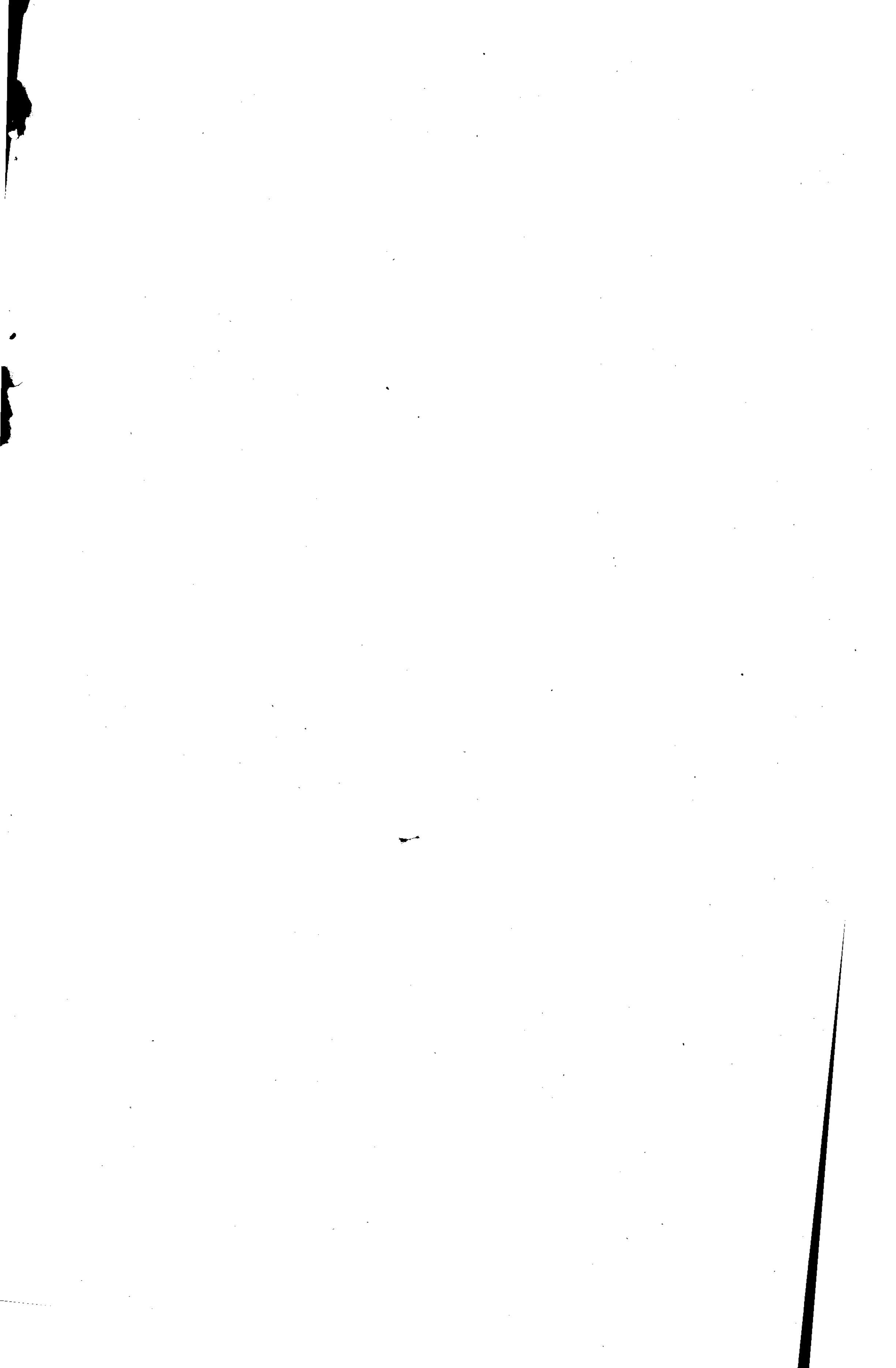
عبد اللطيف عاشور

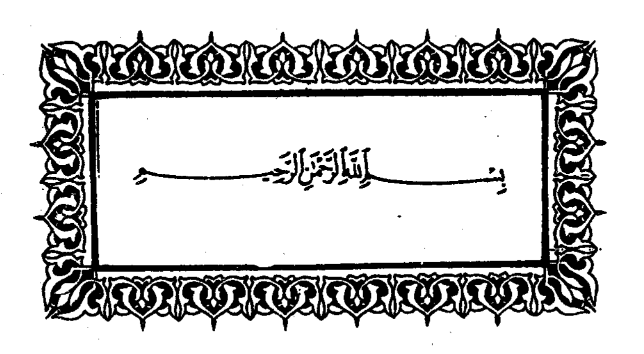





وكيلنا الوحيد بالمملكة العربية السعودية ،
مكتبة الساعى
الرياض ت ، ٤٢١٥٦٣٦٠ - فاكس ، ٤٢١١٤٣٤٠
فرع جدة - تليفون ، ٦٥٣٢٠٨٩







مقـــدّمة

الحمد لله ولى الأمر والتدبير ، وإليه المرجع والمصير ، سبحانه كتب على نفسه البقاء وعلى خلقه الفناء ، وهو الحى الدائم الذى لايموت ، والصلاة والسلام على محمد خاتم الأنبياء الذى خُيِّر فاختار الرفيق الأعلى ، ولم تفتنه الحياة الدنيا ، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه وأحيا سنته إلى يوم الدين .

وبعـــد ...

فهذا كتاب « عذاب القبر ونعيمه وعظة الموت » يتناول بداية الحقيقة الوحيدة التى تواجه الإنسان كل يوم فلا يتنبه لها إلى أن تقع لذاته حين لاينفع الانتباه ، وهذه الحقيقة الوحيدة هى الموت .

ذلك أن الموت يكاد يفقد موعظته بيننا يوماً بعد يوم ، وبالتالى لاتقع أحداث ما بعد الموت فى داخلنا موقعها الصحيح ، وهى موضوع كتابنا .

ولما كان هذا الأمر على درجة من الأهمية فى حياة المسلم خاصة فى عصرنا ، فقد رأينا زيادة موضوعات الكتاب ليتناول بداية اللحظة التى ينتقل عندها الإنسان إلى ربه ، إلى أن يقوم بين يدى الله رب العالمين .

ولقد راعينا فيه ذكر الأحكام التى تخص الميت ، ومايفعله المسلمون تجاهه كالغسل ، والصلاة عليه ، ودفنه ... إلخ .

ولعلنا بهذا نكون قد وضعنا للقارىء المسلم مايغنيه عن كثيرٍ من

المطولات ، ومايصعب قراءته وتناوله .

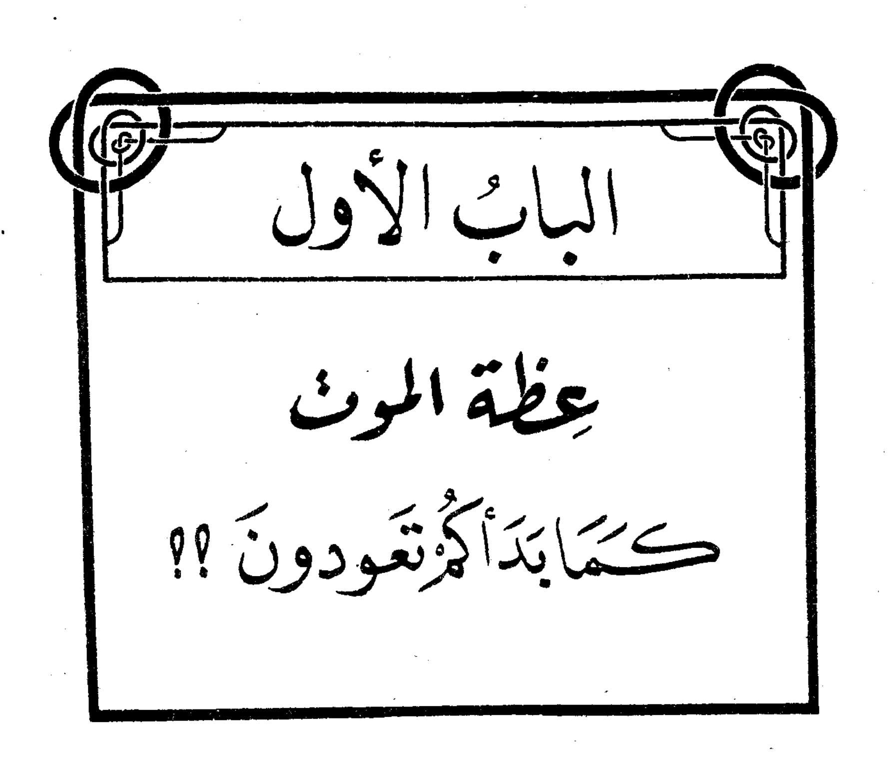
﴿ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ﴾[1] .

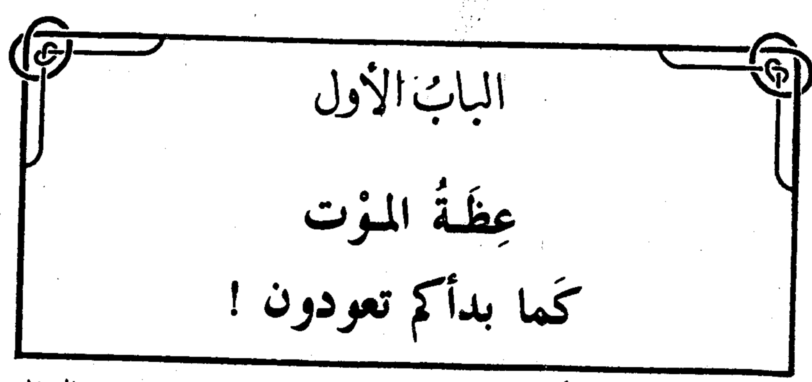
ونسأل الله أن يتقبل منا هذا العمل ، وينفع به .. والله من وراء القصد ، وهو يهدى السبيل .

عبد اللطيف أحمد عاشور



(١) الآية رقم ٤ من سورة الممتحنة .


الباب الأول
عظة الموت
كما بدأكم تعودون !!



الباب الأول

عِظَةُ المَوْت

كَما بدأكم تعودون !

لابد من الموت ، لأنه خروج من مكان يستحيل البقاء فيه وانتقال إلى دار يحاسب فيها القهار ، وبعدها ينتهى الإنسان من الحساب لتقاس الأشياء بموازين طبيعية ، لا يخيب عندها الحق ، ولا يُسَانَد عندها الباطل ، فالحق حق ... والباطل باطل .

لابد من الموت ، لأنه رجوع إلى الأصل الذى خلق منه الإنسان فكما خلقه من تراب ، لابد وأن يكون تراباً لتتذكر النفوس الظالمة حالها حين ظُلْمِها ، والمضطربة حين اضطرابها ، والمفسدة حين إفسادها — أن مآلها إلى تراب .

خفف الوطء ماأظن أديم الأرْ ض إلا من هـذه الأجســاد

فربما تخشع يوماً ، أو تتعظ ساعة ، فينصلح حال الدنيا ، ويكون هناك أهل حق وأهل باطل ، وتسير فى حالة لا يستقيم عندها الحق كله ، ولا يؤدى بها إلى الهلاك .. بل الموت بصيرة أمام البشر ، يودعون واحداً منهم ، فيرون التراب والعظام والدود واللحود .. ولولا ذلك لما استقام بشر على طريق سوى ، فالنهاية معلومة ، وفى تذكرها يبدأ الإصلاح فلا يستقر حال بنى البشر .

لابد من الموت ، لأنه إظهار لقدرة الله ، وبرهان على البعث ، ودليل متيقن على الوقوف أمام الله رب العالمين ، فكيف يسير العالم منذ خلق والناس يتساقطون كل يوم ، بل كل لحظة ؟ وكيف يحاسب أولئك جميعاً أمام رب العالمين ؟. وكيف يتأكد الناس من أن ظالماً لن يعيث فى الأرض الفساد طويلا ؟.

إن الموتْ دليل لهم على حياتهم الباقية التى أرادها لهم رب البرية بمقاييس معلومة ، وموازين سديدة محكمة ، فخالق الموت جدير وقدير على محاسبة الناس جميعاً . وهذا الظالم لن يبقى على الأرض طويلا مادام البشر يموتون ، والمطمئن لقلوبهم أن الموت غير معلوم .

إذن .. فالموت لابد منه ليتعظ الناس ، وتستقر أحوالهم ، فكان أقوى عظة ، وأفظع خطباً ، وأشنع أمْراً ، وأمرُّ كأساً .. لذا كان تذكره دائماً سبيلا إلى الإصلاح .. إصلاح النفس .. وإصلاح المفاسد .. والإصلاح بين الناس .. وإصلاح المجتمع .. والجهاد فى سبيل الله .

فهل ننسى أننا نؤخذ من فراشنا ، ونُشَد على لوح ، ونكفن بأكفان لا تحمل بين طياتها سوانا ، ونوضع فى القبور ليأكلنا الدود !

إنها ساعة يتحير عندها العقل .. يرجع إلى رشده يعمل فكره .. يهيب بالناس أن يحسنوا الختام ، وأن يرفعوا لا إله إلا الله محمد رسول الله .. ﷺ .. وها نحن أولاء فى دار الدنيا ، فهلا نجتمع جميعا ولا نفترق ، ونتحاب ولا نتخاصم ، مادام هذا مصيرنا ؟. الموت يعمنا ، والقبر يضمنا ، والقيامة تجمعنا ، والله يحكم بيننا ، ويفصل فينا ، وهو أحكم الحاكمين .

★ ★ ★

يحكى أن رجلين تنازعا وتخاصما فى أرض ، فأُنطق الله عز وجل لبنة من حائط من تلك الأرض ، فقالت : ياهذان .. فيم تتنازعان؟ وفيم تتخاصمان؟. إنى كنت ملكا من الملوك ، ملكت كذا وكذا سنة ثم مت وصرت ترابا ، فبقيت كذلك ألف سنة ثم أخذنى خزاف ــ يعنى فخاراً ــ فعمل منى إناء فاستعملت حتى تكسرت ، ثم عدت تراباً ، فبقيت ألفَ سنة ، ثم أخذنى رجل فضرب منى لبنة ، فجعلنى فى هذا الحائط !. ففيم تنازعكما ؟ وفيم تخاصمكما ؟..

ويحكى أن الرشيد لما اشتد مرضه ، أحضر طبيباً نطاسيا فارسياً ، وأمر أن يُعرض عليه ماؤه ــ أى بوله ــ مع مياه كثيرة لمرضى ، وأصحاء ، فجعل يستعرض القوارير حتى رأى قارورة الرشيد فقال : قولوا لصاحب هذا الماء

يوصى ، فإنه قد انحلت قواه ، وتداعت بنيته . ولما استعرض باقى الماء شعر بقدوم الموت فنقلوه حيث فاضت روحه ، فيئس الرشيد من نفسه وأنشد :

إن الطبيب بطبه ودوائه ... لا يستطيع دفاع نحب قد أتى
ما للطبيب يموت بالداء الذى ... قد كان أبرأ مثله فيما مضى
مات المداوى والمداوَى والذى ... جلب الدوا أو باعه ، ومن اشترى[1]

وصدق القائل :

قل للطبيب تخطفته يد الردى ... يا شافى الأمراض من أرداكا؟!

والقائل :

تزود من التقوى فإنك لا تدرى
إذا جن ليل هل تعيش إلى الفجر؟!
فكم من صحيح مات من غير علة
وكم من عليل عاش حيناً من الدهر ؟!
وكم من صبى يرتجى طول عمره
وقد نسجت أكفانه وهو لا يدرى!
وكم من عروس زينوها لزوجها
وقد قبضت روحاهما ليلة القدر !

◉ لماذا كتب الله الموت ؟

كتب الله الموت على الإنسان والمخلوقات ليحاسبوا على ما كلفهم به . فقد خلقهم لعبادته ، فمنهم من أذعن لأول مرة فسمت نفسه ونقت سريرته ، وصفت روحه ، فكان من الفائزين .

ومنهم من لم يعمل لله حساباً ، أو خدعته نفسه ، أو قهرته شهوته .

---

(١) من التذكرة ، للإمام القرطبى ، طبعة الكليات ، ص ٣٧ .

أو غلبه شيطانه ، فكان من الخاسرين :

وحتى تسير الدنيا التى خلقها الله لهم على حال مستقر ، جعل الموت غير معلوم ليكون دائماً على أهبة الاستعداد ، فلا يظلم ، ولا يفسق ، ولا يفسد .. بل يلتزم لئلا يأتيه الموت على حالة عندها غضب الله .

الملاحدة .. والملحدة .. والموت :

الملاحدة : الذين ينكرون وجود الله ويسمون بالزنادقة . والملحدة: أصحاب المذهب الفلسفى المعروف . ولا نرد على الملاحدة لأنهم يجب أولا أن يؤمنوا بالله ثم نناقشهم فى قضية الموت وغيره . أما الملحدة : ففد يذهب أناس من الإسلاميين بمذهبهم ، ولقد ناقشت بعضهم وهم كثير ، وهم ينكرون جملة عذاب القبر ، وأنه ليس له حقيقة .. واحتجوا بأن قالوا : إنا نكشف القبر فلا نجد فيه ملائكة عمياً صما يضربون الناس بمطارق ... الخ . وكذلك لو كشفنا عنه فى كل حالة لوجدناه فيه لم يذهب ولم يتغير ، وكيف يصح إقعاده ونحن لو وضعنا الزئبق بين عينيه لوجدناه بحاله ، فكيف يجلس ويضرب ولا يتفرق ذلك ؟ وكيف يصح إقعاده وما ذكرتموه من الفسحة ؟ ونحن نفتح القبر فنجد لحده ضيقاً ، ونجد مساحته على حد ما حضرناها لم يتغير علينا ، فكيف يسعه ويسع الملائكة السائلين له ؟ وإنما ذلك كله إشارة إلى حالات ترد على الروح من العذاب الروحانى ، وإنها لا حقائق لها على موضوع اللغة !! وسيأتى الكلام عن عذاب القبر ونعيمه .. ولكننا نرد عليهم هنا لإنكارهم وتزييفهم للحقائق .

قال العلامة القرطبى :

إنا نؤمن بما ذكرناه .. ولله أن يفعل ما يشاء من عقاب ونعيم .. ويصرف أبصارنا عن جميع ذلك .. بل يُغيِّبه عنا ، فلا يبعد فى قدرة الله تعالى فعل ذلك كله إذ هو القادر على كل ممكن جائز ، فإنا لو شئنا لأزلنا الزئبق عن عينيه ، ثم نضجعه ونرد الزئبق مكانه ، وكذلك يمكننا أن نعمق القبر ونوسعه حتى يقوم فيه قياماً فضلا عن القعود ،

وكذلك يمكننا أن نوسع القبر مائتى ذراع فضلا عن سبعين ذراعاً ، والرب سبحانه أبسط منا قدرة .. وأقوى منا قوة .. وأسرع فعلا ، وأحصى منا حساباً : ﴿ **إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون** ﴾[1] . ولا رب لمن يدعى الإسلام إلّا من هذه صفته ، فإذا كشفنا نحن عن ذلك رد الله سبحانه الأمر على ماكان ، نعم .. بل لو كان الميت بيننا موضوعاً فلا يمتنع أن يأتيه الملكان ويسألاه من غير أن يشعر الحاضرون بهما ، ويجيبهما من غير أن يسمع الحاضرون جوابه . ومثال ذلك : نائمان بيننا أحدهما ينعم والآخر يعذب ، ولا يشعر بذلك أحد ممن حولهما من المنتبهين ، ثم إذا استيقظا أخبر كل واحد منهما عما كان فيه . قال بعض علمائنا : إن دخول الملك القبور جائز أن يكون تأويله : اطلاعه عليها وعلى أهلها ، وأهلها مدركون له عن بُعد من غير دخول ولا قرب . ويجوز أن يكون الملك للطافة أجزائه يتولج فى خلال المقابر فيتوصل إليهم من غير نبش ويجوز أن ينبشها ثم يعيدها إلى مثل حالها على وجه لا يدركها أهل الدنيا ، ويجوز أن يكون الملك يدخل من تحت قبورهم من مداخل لا يهتدى الإنسان إليها .

وبالجملة .. فأحوال المقابر وأهلها على خلاف عادات أهل الدنيا فى حياتهم ، فليست تنقاس أحوال الآخرة على أحوال الدنيا ، وهذا مما لا خلاف فيه ، ولولا خبر الصادق بذلك لم نعرف شيئاً مما هنالك . فإن قالوا : كل حديث يخالف مقتضى المعقول يقطع بتخطئة ناقله ، ونحن نرى المصلوب على صلبه مدة طويلة وهو لا يُسأل ولا يحيا ، وكذلك يشاهد الميت على سريره وهو لا يجيب سائلاً ، ولا يتحرك ، ومن افترسته السباع ، ونهشه الطيور ، ومدارج الرياح ، فكيف تجتمع أجزاؤه ؟ . أم كيف تتألف أعضاؤه ؟ . وكيف تتصور مساءلة الملكين لمن هذا وصفه ؟ . أم كيف يكون القبر على من هذا حاله روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النار ؟ . والجواب عن هذا من وجوه أربعة :

---

(١) سورة يس ، آية : ٨٢ .

أحدها : أن الذى جاء بهذا هم الذين جاءوا بالصلوات الخمس وليس لنا طريق إلا ما نقلوه لنا من ذلك .

الثانى : ما ذكره القاضى لسان الأمة ، وهو أن المدفونين فى القبور يسألون ، أما الذين بقوا على وجه الأرض فإن الله تعالى يحجب المكلفين عما يجرى عليهم ، كما حجبهم عن رؤية الملائكة مع رؤية الأنبياء عليهم السلام لهم . ومن أنكر ذلك فلينكر نزول جبريل عليه السلام على الأنبياء عليهم السلام .. وقد قال الله تعالى فى وصف الشياطين :

﴿ إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ﴾[1] .

الثالث : قال بعض العلماء : لا يبعد أن ترد الحياة إلى المصلوب ونحن لا نشعر به ، كما أنّا نحسب المغمى عليه ميتاً .. وكذلك صاحب السكتة وندفنه على حساب الموت ، ومن تفرقت أجزاؤه فلا يبعد أن يخلق الله الحياة فى أجزائه . قلت : ويعيده كما كان ، وقد ثبت ذلك فى السنة من حديث الرجل الذى أمر بحرقه بعد موته .. وهو فى الصحيحين .

الرابع: قال أبو المعالى : اَلْمَرْضِيُّ عندنا : أن السؤال يقع على أجزاء يعلمها الله تعالى من القلب أو غيره ، فيحييها ويوجه السؤال إليها . وذلك غير مستحيل عقلاً . قال بعض علمائنا : وليس هذا بأبعد من الذر الذى أخرجه الله من صلب آدم عليه السلام وأشهدهم على أنفسَهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى[2] .

◉ كفى بالموت واعظاً !!

الموت لا يقرع باباً ، ولا يهاب حجاباً ، ولا يقبل بديلاً ، ولا يأخذ كفيلاً ، ولا يرحم صغيراً ، ولا يوقر كبيراً .

---

(١) سورة الأعراف ، آية : ٢٧

(٢) بتصرف ، التذكرة (١/١٥٩ ، ١٦٠)

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : **« أعمار أمتى ما بين الستين إلى السبعين وأقلهم من يجوز ذلك »** . (رواه الترمذى)

وعن أبى هريرة أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ : **« أعذر الله إلى امرىء أخر أجله حتى بلغ ستين سنة »** . (رواه البخارى)

وعن أبى ذر رضى الله عنه قال : قلت يارسول الله ، فما كانت صحف موسى عليه السلام ؟ .. قال :

« كانت عبراً كلها: عجبت لمن أيقن بالموت ثم هو يفرح ! عجبت لمن أيقن بالنار ثم هو يضحك ! عجبت لمن أيقن بالقدر ثم هو ينصب ! عجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم اطمأن إليها ! وعجبت لمن أيقن بالحساب غداً ثم لا يعمل ! » . (رواه ابن حيان فى صحيحه)

وعن سهل بن سعد الساعدى رضى الله عنه قال : مات رجل من أصحاب النبى ﷺ ، فجعل أصحاب رسول الله ﷺ يثنون عليه ويذكرون من عبادته ورسول الله ﷺ ساكت . فلما سكتوا قال رسول الله ﷺ : **« هل كان يكثر ذكر الموت؟ »** . قالوا : لا . قال : **« فهل كان يدع كثيراً مما يشتهى ؟ »** . قالوا : لا . قال : **« ما بلغ صاحبكم كثيراً مما تذهبون »** .

(رواه الطبرانى بإسناد حسن)

وعن الضحاك قال : أتى النبى ﷺ رجل فقال : يارسول الله ، من أزهد الناس ؟ . فقال : **«من لم ينس القبر والبلى ، وترك فضل زينة الدنيا وآثر ما يبقى على ما يفنى ، ولم يعد غداً من أيامه ، وعَدَّ نفسه من الموتى»** .

(رواه ابن أبى الدنيا)

وروى عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ على المنبر والناس حوله : **« أيها الناس استحيوا من الله حق الحياء »** . فقال رجل : يارسول الله إنا لنستحى من الله تعالى . فقال : **« من كان منكم مستحياً فلا يبيتن ليلة إلا وأجله بين عينيه ، وليحفظ البطن وما وعى ، والرأس وما حوى ، وليذكر الموت والبلى ، وليترك زينة الدنيا »** .

(رواه الطبرانى فى الأوسط)

وعن البراء رضى الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ فى جنازة ، فجلس على شفير القبر فبكى حتى بل الثرى ثم قال : « **يا إخوانى لمثل هذا فأعدوا** » .

(رواه ابن ماجه بإسناد حسن)

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : خط النبى ﷺ خطاً مربعاً وخط خطاً فى الوسط خارجاً منه وخط خطوطاً صغاراً إلى هذا الذى فى الوسط من جانبه الذى فى الوسط فقال : « **هذا الإنسان ، وهذا أجله محيط به ، أو قد أحاط به ، وهذا الذى هو خارج أمله ، وهذه الخطوط الصغار الأعراض ، فإن أخطأه هذا نهشه هذا ، وإن أخطأه هذا نهشه هذا**) .

(رواه البخارى والترمذى والنسائى وابن ماجه)

وروى عنْ أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **أربعة من الشقاء : جمود العين ، وقسوة القلب ، وطول الأمل ، والحرص على الدنيا** » .

(رواه البزار)

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمناً ويمسى كافراً ، ويمسى مؤمناً ويصبح كافراً ، يبيع دينه بعرض من الدنيا** » .

(رواه مسلم)

وعن أبى هريرة أيضاً . أن رسول الله ﷺ قال : « **بادروا بالأعمال سبعاً هل تنظرون إلا فقراً منسياً ، أو غنى مطغياً ، أو مرضاً مفسداً ، أو هرماً مفنداً[1] ، أو موتاً مجهزاً ، أو الدجال فشر غائب ينتظر ، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر** » .

(رواه الترمذى)

وعن شداد بن أوس رضى الله عنه . عن النبى ﷺ قال : « **الكَيِّسُ من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله** » .

(رواه ابن ماجه والترمذى)

---

(١) الهرم المفند : أى الشيخوخة التى تجعل الإنسان يخرف فى الكلام .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **ما من أحد يموت إلا ندم** » . قالوا : وما ندامته يارسول الله ؟ قال : « **إن كان محسناً ندم أن لا يكون ازداد ، وإن كان مسيئاً ندم أن لا يكون نزع** »[1] .

(رواه الترمذى والبيهقى فى الزهد)

وروى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : « **يا أيها الناس توبوا إلى الله قبل أن تموتوا ، وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا ، وصلوا الذى بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له وكثرة الصدقة فى السر والعلانية؛ ترزقوا وتنصروا وتجبروا** » .

(رواه ابن ماجه)

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ لرجل وهو يعظه : « **اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك** » . (رواه الحاكم)

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **ألا أنبئكم بخيركم** ؟ » . قالوا : نعم . قال : « **خياركم أطولكم أعماراً وأحسنكم أعمالاً** » . (رواه أحمد والبيهقى وابن حبان فى صحيحه)

وعن أبى بكرة رضى الله عنه ، أن رجلاً قال : يارسول الله أى الناس خير ؟ قال : « **من طال عمره وحسن عمله** » . قال : فأى الناس شر ؟ . قال : « **من طال عمره وساء عمله** » .

(رواه الترمذى . وقال حديث حسن صحيح)

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن لله عباداً يضن بهم عن القتل ويطيل أعمارهم فى حسن العمل ، ويحسن أرزاقهم ، ويحييهم فى عافية ، ويقبض أرواحهم فى عافية على الفرش ، ويعطيهم منازل الشهداء** » . (رواه الطبرانى)

---

(١) نزع : أى أقلع عن المعاصى .

وعن عبد الله بن شداد ، أن نفراً من بنى عذرة ثلاثة أتوا النبى ﷺ فأسلموا ، قال : فقال النبى ﷺ : « **من يكفيهم ؟** » . قال طلحة : أنا . قال : فكانوا عند طلحة . فبعث النبى ﷺ بعثاً فخرج فيه أحدهم فاستشهد ، ثم بعث بعثاً فخرج فيه آخر فاستشهد ، ثم مات الثالث على فراشه . قال طلحة : فرأيت هؤلاء الثلاثة الذين كانوا عندى فى الجنة ، فرأيت الميت على فراشه أمامهم ، ورأيت الذى استشهد أخيراً يليه ، ورأيت أولهم آخرهم . قال : فداخلنى من ذلك ، فأتيت النبى ﷺ فذكرت ذلك فقال : « **وما أنكرت من ذلك ليس أحد أفضل عند الله عز وجل من مؤمن يعمر فى الإسلام لتسبيحه وتكبيره وتهليله** » .

(رواه أحمد وأبو يعلى ورواتهما رواة الصحيح)

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « **لا تتمنوا الموت فإن هول المطلع شديد ، وإن من السعادة أن يطول عمر العبد ويرزقه الله الإنابة** » .

(رواه أحمد بإسناد حسن والبيهقى)

وعن أم الفضل رضى الله عنها ، أن النبى ﷺ دخل على العباس وهو يشتكى ، فتمنى الموت ، فقال : « .. **يا عباس عم رسول الله ﷺ ، لا تتمن الموت إن كنت محسناً تزدد إحساناً إلى إحسانك خير لك ، وإن كنت مسيئاً فإن تؤخر تستعتب من إساءتك خير لك . لا تتمن الموت** » .

(رواه أحمد والحاكم)

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **لا يتمن أحدكم الموت إما محسناً فلعله يزداد ، وإما مسيئاً فلعله يستعتب** »[1] .

(رواه البخارى)

وفى رواية لمسلم : « **لا يتمن أحدكم الموت ، ولا يدع به من قبل أن يأتيه ، وإنه إذا مات انقطع عمله ، وإنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيراً** » .

---

(١) **يستعتب** : أى يرجع عن الإساءة ويكسب الرضا .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **لا يتمن أحدكم الموت لضر نزل به ، فإن كان ولابد فاعلاً فليقل : اللهم أحينى ما كانت الحياة خيراً لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى** » .

(رواه البخارى ومسلم)

وقال سيدنا على رضى الله عنه : إن الدهر يجرى بالباقين كجريه بالماضين . لا يعود ما ولى منه ، ولا يبقى من فيه . وإن الله تعالى قد أوضح السبيل . فإما شقوة لازمة ، وإما سعادة دائمة ، فمن شغل نفسه بغير نفسه تحير فى الظلمات ، وارتبك فى الهلكات ، والناس فى هذه الدنيا أغراض تنتصل[1] فيها المنايا مع كل جرعة شرق . وفى كل أكلة غصص[2] . لا ينالون منها نعمة إلا بفراق أخرى ، ولا يعمر منهم معمر يوماً إلا بهدم يوم آخر من أجله ، ولا تجدد له زيادة فى أكله إلا بنفاذ ما قبلها من رزقه . ولا يحيا له أثر إلا مات له أثر . ولا تقوم له نابتة إلا وتسقط منه محصورة . فاتقوا سكرات النعمة ، واحذروا بوائق النقمة[3] ، ولا تدخلوا بطونكم لعق الحرام[4] ، فإنكم بعين من حرم عليكم ، وأن عليكم رصداً من أنفسكم ، وعيوناً من جوارحكم . وحُفَّاظاً صُدُقاً يحفظون أعمالكم ، وعدد أنفاسكم ، كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون لا تستركم منهم ظلمة ليل داج ، ولا يكنكم منهم باب ذو رتاج[5] ، وإن اليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل ، وإنكم فى أيام أمل من ورائه أجل .. فمن عمل أيام أمله قبل حضور أجله نفعه عمله ، ولم يضره أجله ، ومن قصر فى أيام أمله قبل حضور أجله . فقد خسر عمله وضره أجله . وقد أمرتم بالظعن ، ودللتم على الزاد . فقال تعالى :

﴿ **وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب** ﴾[6] .

---

(١) أغراض تنتصل : أى أهداف تتبارى فيها سهام المنايا .
(٢) الشرقة : الغصة بالماء عند الشرب .
(٣) البوائق : جمع بائقة وهى الداهية .
(٤) لعق الحرام : أى أكل الحرام .
(٥) ذو رتاج : أى محكم الغلق .
(٦) سورة البقرة : ١٩٧ .

وإن لكل من الدنيا والآخرة بنين ، فكونوا من أبناء الآخرة ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، فإن كل ولد سيلحق بأمه يوم القيامة ، وإن اليوم المضمار وغداً السباق ، والسبقة الجنة والغاية النار .

ولما احْتُضِر أبو بكر الصديق رضى الله عنه قالت عائشة :

لعمرك ما يغنى الثراء عن الفتى إذاحشرجت يوماً وضاق بها الصدر

فقال : ليس كذلك ولكن قولى : ﴿ **وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد** ﴾[1] . ولذلك كان يقولها أبو بكر .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه عند الموت : ويلى وويل أمى إن لم يرحمنى ربى ! .

ولما دخلوا على عثمان رضى الله عنه جعل يتمثل :

أرى الموت لا يبقى حزيناً ولا يدع لعاد ملاكاً فى البلاد ومرتقى
يبيت[2] أهل الحصن والحصن مغلق ويأتى الجبالَ من شماريخها العلا

ولما جرح على بن أبى طالب رضى الله عنه جعل يقول :

فلا منجى من الموت وإن الموت لاقيك
ولا تجزع من الموت إذا حل بواديك

ولما احتضر معاوية رضى الله عنه جعل يقول :

إن تناقش يكن نقاشك يارب سماحاً لا طوق لى بالعذاب
أو تجاوز فأنت رب عفو عن مسىء ذنوبه كالتراب

ولما احتضر معاذ جعل يقول :

أعوذ بالله من ليلة صباحها النار .. مرحباً بالموت ، مرحباً بزائر مغب[3] حبيب جاء على فاقة .. اللهم إنى كنت أخافك ، وأنا اليوم أرجوك . اللهم

---

(١) سورة ق : ١٩ . (٢) يوقع بهم ليلاً ويهلكهم .
(٣) المَغَبَّةُ : عاقبته وآخرته . يقال لهذا الأمر مغبة طيبة .

إنك تعلم أنى لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكرى الأنهار[1] ، ولا لغرس الأشجار ، ولكن لظمأ الهواجر ومكابد الساعات ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر .

ولما احتضر أبو الدرداء جعل يقول :

ألا رجل يعمل لمثل مصرعى هذا ؟ . ألا رجل يعمل لمثل ساعتى هذه ؟ . ألا رجل يعمل لمثل يومى هذا ؟ . وبكى . فقالت له امرأته : تبكى وقد صاحبت رسول الله ﷺ ؟ . فقال : ومالى لا أبكى ولا أدرى علام أهجم من ذنوبى ؟ .

ولما أحتضر أبو هريرة بكى ، فقيل له : وما يبكيك ؟ فقال : بُعْدُ المفازة ، وقلة الزاد ، وعقبة كئود ، المهبط منها إلى الجنة أو إلى النار .

ولما احتضر عمرو بن العاص قيل له : كيف تجدك ؟ . فقال : والله لكأن جنبى فى تخت[2] ، وكأنى أتنفس من سم الخياط ، وكأن غصن شوك يجر به من قدمى إلى هامتى .

ولما احتضر عمر بن عبد العزيز قال : إلهى أمرتنى فلم أئتمر ، وزجرتنى فلم أنزجر ، غير أنى أقول : لا إله إلا الله .

ولما احتضر الرشيد أمر بحفر قبره ثم حمل إليه فاطلع فيه فبكى حتى ابتلت لحيته ، ثم قال : يامن لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه .

وكان المعتصم يقول عند موته : ذهبت الحيل فلا حيلة .

وبكى عامر بن عبد قيس لما احتضر وقال : إنما أبكى على ظمأ الهواجر وقيام ليل الشتاء .

وبكى يزيد الرقاش عند موته ، قيل : ما يبكيك ؟ . فقال : أبكى على ما يفوتنى من قيام الليل ، وصيام النهار . ثم جعل يقول : يايزيد من يصلى

---

(١) كرى الأنهار : شقها .

(٢) التخت : وعاء تصان فيه الملابس . .

لك ؟ . ومن يصوم عنك ؟ . ومن يتقرب إلى الله عز وجل بالأعمال بعدك ؟ . ويحكم ، ياإخوانى : لا تغتروا بشبابكم ، فكأن قد حل بكم مثل ما قد حل بى .

وقال المزنى : دخلت على الشافعى فى علته التى مات فيها فقلت له : ياأبا عبد الله كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت من الدنيا راحلاً ، ولإخوانى مفارقاً . وبكأس المنية شارباً ، وعلى الله تعالى وارداً ، ولا أدرى نفسى تصير إلى الجنة فأهنئها أم إلى النار فأعزيها . ثم بكى وقال :

ولما قسا قلبى وضاقت مذاهبى ... جعلت رجائى نحو عفوك سلما
تعاظمنى ذنبى فلما قرنته ... بعفوك ربى كان عفوك أعظما
ومازلت ذا عفو عن الذنب سيدى ... تجود وتعفو منة وتكرما
ولولاك ما يغوى بإبليس عابد ... فكيف وقد أغوى صَفِيَّك آدما ؟!

وقال إبراهيم بن أدهم : مرض أحد العباد فدخلنا نعوده ، فجعل يتنفس ويتأسف . فقلت له : على ماذا تتأسف ؟ . قال : على ليلة نمتها ، ويومٍ أفطرته ، وساعةٍ غفلت فيها عن ذكر الله عز وجل ! .

وبكى أحد العباد عند موته . فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : أن يصوم الصائمون ولست فيهم ، ويذكر الذاكرون ولست فيهم ، ويصلى المصلون ولست فيهم .

وقال أبو محمد العجلى : دخلت على رجل وهو فى الموت فقال لى : سخرت بى الدنيا حتى ذهبت أيامى .

وخطب الناس عُمر بن عبد العزيز فقال : ياأيها الناس .. ثم خنقته العبرة ، فسكت ، ثم قال : ياأيها الناس .. إن امْرَأً أصبح ليس بينه وبين آدم أب حى لمُعْرِق له فى الموت . أيها الناس .. إنكم لكم فى أسلاب الهالكين ، وفى بيوت الميتين ، وفى دور الظاعنين ، جيراناً كانوا معكم بالأمس أصبحوا فى دورٍ خامدين ، بين آمن روحه إلى يوم القيامة ، وبين معذب روحه إلى يوم القيامة ، ثم تحملونه على أعناقكم ، ثم تضعونه فى بطن من الأرض ، بعد

غضارة من العيش ، وتلذذ فى الدنيا ، فإنا لله وإنا إليه راجعون . أما والله لوددت أنه بدئ بى وبلحمتى التى أنا منها ، حتى يستوى عيشنا وعيشكم . أما والله لو أردت غير هذا من الكلام لكان اللسان به منى منبسطاً ، ولكنت بأسبابه عارفاً . ثم وضع طرف ردائه على وجهه فبكى وبكى الناس معه .

وقال الشاعر :

سوایَ برنَّاتِ المعَازِفِ يطْرَبُ ... ويملك سَمْعَيْهِ الغناءُ المرتَّبُ
وغيرى يقضى بالملذات عمره ... فيأكل مما يشتهيه ويشربُ
ويسرح فى وادى الخلاعة هائماً ... وقد شاقه فى العيد هند وزينبُ
ولكنَّ مِثْلى لا يميلُ إلى هَوًى ... دعاه عذار أو بَنَان مُخضَّبُ
ولا زخرف الدنيا غدا يستميلنى ... ولا أنا ممن بالسفاسِفِ يرغب
وما ذاك من نَقْصِ الشعورِ وإنما ... رأيت جلال الله من ذاك يغضب
نما خوفُ ربى بين كل جوانحى ... فلا عضوَ إلا وهو بالرعبِ يُضْرَبُ
نفى النومَ عن عينى كثيرُ تفكرى ... بما أنا لاقيه إذا أنا أُطْلَبُ
وأحرق قلبى خوفُ نارِ جَهنم ... بهَا كلُّ عاصٍ بالعذاب يُقلَّبُ
وخفف من روعى رجائى جنة ... بها للمطيعين الثواب المحبب
ومهما يكن ظنى جميلا بخالقى ... فما أنا إلا خائف أترقب
عجبت لمن يدرى بأن ليس مهرب ... من الموت أصلا كيف يلهو ويلعب؟!
ويفعل أفعالاً قباحاً شنيعة ... وفى كل يوم موته يتقرب
وكيف يلذ العيش من هو ميت ... وعامِرُه من بعدِ ما مات يَخْرب ؟!
ولو لم يكن نار ولا جنة غدا ... سوى القبر كان القبر والله يرهب
وفى القبر ما فى القبرِ لو كان عالماً ... بأحواله الإنسانُ ما كان يُذْنِبُ
ولكنَّه لم يَدْرِ ما هو صائر ... إليه سوى أن قِيلَ مَاتَ فيذنب
وجود بتقويم وأجمل صورة ... غداً بين أطباق التراب يغيب
وذلك ما ندرى ومَبْلَغُ عِلْمنا ... وغفلتُنا عما سنلقاه أعْجَبُ
كأنى إذا شَيَّعتُ يوماً جِنازَةً ... أنا الميت بى ذا الناس للقبر تذهب
وهونت الدنيا علىَّ بلاءها ... فها أنا لا أشكو ولا أتَعَتَّبُ

وكل امرىء بالله والرسل مؤمن ... يهون عليه اليوم ما هو يصعب
سلام على روحي وجسمي ورحمة ... من الله فى موتى ومحياى تسكب
فقد زاد شوقى للجنان وعيشها ... وإن لم أكن أهلا لما أتطلب
ولكن إيماناً قوياً غَرَسْتُه ... بقلبى إلى ربى به أتقربُ
إذا نفحتنى من رضا الله نفحة ... فأبعد ما أرجوه أدنى وأقربُ

◉ أقوال العلماء فى الموت وَوصْفهم له

قال القرطبى :

الموت هو الخطب الأفظع ، والأمر الأشنع ، والكأس التى طعمها أكره وأبشع ، وأنه الحارث الأهذم للَّذَّات ، والأقطع للراحات ، والأجلب للكريهات ، فإن أمراً يقطع أوصالك ، ويفرق أعضاءك ، ويهدم أركانك ، لهو الأمر العظيم . والخطب الجسيم ، وإنَّ يومه لهو اليوم العظيم !

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أناس من أصحابه :

أوصيكم بتقوى الله العظيم ، والمراقبة ، واتخذوا التقوى والورع زاداً ، فإنكم فى دار عما قريب تنقلب بأهلها والله فى عرصات[1] القيامة وأهوالها ، يسألكم عن الفتيل والنقير .. فالله الله عبادَ الله .

اذكروا الموت الذى لابد منه ، واسمعوا قول الله تعالى : ﴿ **كل نفس ذائقة الموت** ﴾[2] وقوله : ﴿ **كل من عليها فان** ﴾[3] ، وقوله عز وجل : ﴿ **فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم** ﴾[4] ، قد بلغنى — والله أعلم — أنهم يضربون بسياط من نار . وقال جل ذكره : ﴿ **قل يتوفاكم مَلَكُ الموت الذى وُكِّلَ بِكُم ، ثم إلى ربكم ترجعون** ﴾[5] .

وقال أبو ميسرة :

لو أن ألم شعرة من الميت وضع على أهل السماء والأرض لماتوا جميعاً !

---

(١) عرصات : شدائد . (٢) آل عمران ، آية ١٨٥ . (٤) سورة محمد ، آية : ٢٧
(٣) سورة الرحمن ، اية : ٢٦ . (٥) سورة السجدة ، آية : ١١

وقال أبو عبد الله المحاسبى :

إن الله تعالى قال لإبراهيم عليه السلام : **ياخليلى كيف وجدت الموت ؟** . قال : كسفود[1] محمى جعل فى صوف رطب ثم جذب . قال : « **أما إنَّا قد هَوَّنَّا عليك ياإبراهيم** » .

وروى أن موسى عليه السلام لما صار روحه إلى الله تعالى قال له ربه : **ياموسى ، كيف وجدت الموت ؟** . قال : وجدت نفسى كالعصفور الحى حين يقلى على المقلى لا يموت فيستريح ، ولا ينجو فيطير . وروى أنه قال : (وجدت نفسى كشاة تسلخ بِيَدِ القصاب[2] ، وهى حية) .

وقال عيسى ابن مريم عليه السلام للحواريين : « **يامعشر الحواريين .. ادعوا الله أن يُهَوِّن عليكم هذه السكرة** » يعنى سكرات الموت[3] .

قال الدقاق :

مَنْ أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِ الموت أُكْرِمَ بثلاثة أشياء : تعجيل التوبة ، وقناعة القلب ، ونشاط العبادة ، ومن نسى الموت عوقب بثلاثة أشياء : تسويف التوبة ، وترك الرضا بالكفاف ، والتكاسل فى العبادة ، فتفكر يامغرور فى الموت وسكرته . وصعوبة كأسه ومرارته ، فيا للموت من وعدٍ ما أصدقه ! . ومن حاكم ماأعدله ! ، كفى بالموت مقرحاً للقلوب ، ومبكياً للعيون ، ومفرقاً للجماعات ، وهاذماً للَّذَّات ، وقاطعاً للأمنيات ، فهل تفكرت ياابن آدم فى يوم مصرعك وانتقالك من موضعك ، وإذا نقلت من سعة إلى ضيق ، وخانك الصاحب والرفيق ، وهجرك الأخ والصديق ، وأخذت من فراشك وغطائك إلى عرر[4] ، وغطوك من بعد لين لحافك بتراب ومدر[5] ، فياجامع المال ؛ والمجتهد فى البنيان ، ليس لك والله من مالٍ إلا الأكفان ، بل هى للخراب

(١) سفود : حديدة يشوى عليها . (٢) القصاب : الجزار .

(٣) ذكرهما القرطبى فى التذكرة ص ٣١ ، ط الكليات .

(٤) عرر : أى إلى قذارة ، فقول عر فلان (عرة) بالضم والتشديد ، و (عارور) ، (عاروره) أى قذر .

(٥) مدر : قصد بها هنا الحجر ، لأنه ذكر التراب قبلها ، والمدر : أديم الأرض ، والعرب تسمى القذرة مدرة .

والذهاب ، وجسمك للتراب والمآب .

فأين الذى جمعته من المال ؟ فهل أنقذك من الأهوال ؟ ، كلا بل تركته إلى من لا يحمدك ، وقدمت بأوزارك على من لا يعذرك . ولقد أحسن من قال فى تفسير قوله تعالى : ﴿ **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة** ﴾[1] . أى اطلب فيما أعطاك الله من الدنيا ، الدار الآخرة لا فى الطين والمال والتجبر والبغى ، فكأنهم قالوا : لا تنس أنك تترك جميع مالك إلا نصيبك الذى هو الكفن .

وقال التيمى :

شيئان قطعا عنى لذّاتِ الدنيا : ذكر الموت ، وذكر الموقف بين يدى الله تعالى ، وكان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه يجمع العلماء فيتذكرون الموت ، والقيامة ، والآخرة ، فيبكون حتى كأن بين أيديهم جنازة .

وكان يزيد الرقاش يقول لنفسه :

ويحك يا يزيد ! من ذا يصلى عنك بعد الموت ؟ من ذا يصوم عنك بعد الموت ؟ من ذا يتربص عنك وبك للموت ؟ ثم يقول : أيها الناس : ألا تبكون وتنوحون على أنفسكم باقى حياتكم ؟ من الموت طالبه ؟ والقبر بيته ؟ والتراب فراشه ؟ والدود أنيسه ؟ وهو مع هذا ينتظر الفزع الأكبر كيف يكون حاله ؟ ثم يبكى حتى يسقط مغشياً عليه .

وجاء فى التذكرة للقرطبى :

واعلم أن ذكر الموت يورث استشعار الانزعاج عن هذه الدار الفانية ، والتوجه فى كل لحظة إلى الدار الآخرة الباقية ، ثم إن الإنسان لا ينفك عن حالتى ضيق وسعة ، ونعمة ومحنة ، فإن كان فى حال ضيق ومحنة فذكر الموت يسهل عليه بعض ما هو فيه ، فإنه لا يدوم . والموت أصعب منه ، أو فى حال نعمة وسعة فذكر الموت يمنعه من الاغترار بها ، والسكون إليها ، لقطعه عنها ، ولقد أحسن من قال :

---

(١) سورة القصص . آية : ٧٧ .

اذكـر المـوت هـاذم اللَّـذَّات وتجهـز لمصـرع سـوف يـأتى

وقال غيره :

واذكـر المـوت تجـد راحـة فى ادّكار الموت تقصيرُ الأمـل

وأجمعت الأمة على أن الموت ليس له سن معلوم ، ولا زمن معلوم . ولا مرض معلوم . وذلك ليكون على أهبة من ذلك ، مستعداً لذلك . وكان بعض الصالحين ينادى بليل على سور المدينة : الرحيل ! فلما توفى فقد صوته أمير المؤمنين فسأل عنه فقيل : إنه مات ، فقال :

مازال يلهـج بالرحيـل وذكـره حـتى أنـاخ ببابـه الجمـال

فأصابـه متيقظـاً متشـمراً ذا أهبـة لـم تلهـه الآمـال

◉ هَل المَوْت كفّارة ؟

● عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ :

« **الموت كفارة لكل مسلم** » أ. هـ(1) .

قال القرطبى : إنما كان الموت كفارة لكل ما يلقاه الميت فى مرضه من الآلام والأوجاع وقد قال رسول الله ﷺ « **ما من مسلم يصيبه أذى ، من مرض فما سواه إلا حط الله به سيئاته كما تحط الشجرة ورقها** » ذكره مسلم .

● وفى الموطأ عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ :

« **من يرد الله به خيراً يصب منه** » أ. هـ .

● وفى الخبر المأثور يقول الله تعالى :

« **إنى لا أخرج أحداً من الدنيا ، وأنا أريد أن أرحمه ، حتى أوفيه بكل**

---

(1) رواه أبو نعيم ، وذكره ابن العربى فى (سراج المريدين) وقال : حديث صحيح حسن .

خطيئة كان عملها : سقماً فى جسده ، ومصيبة فى أهله وولده ، وضيقاً فى معاشه ، وقتاراً فى رزقه ، حتى أبلغ منه مثاقيل الذر ، فإن بقى عليه شىء شددت عليه الموت ، حتى يفضى إلىَّ كيوم ولدته أمه » أ. هـ .

قلت : وهذا بخلاف من لا يحبه ولا يرضاه كما فى الخبر يقول الله تعالى :

« وعزتى وجلالى ، لا أخرج من الدنيا عبداً أريد أن أعذبه ، حتى أوفيه بكل حسنة عملها بصحة فى جسده ، وسعة فى رزقه ، ورغد فى عيشه ، وأمن فى سربه ، حتى أبلغ منه مثاقيل الذر ، فإن بقى له شىء هونت عليه الموت ، حتى يفضى إلى وليس له حسنة يتقى بها النار » أ. هـ .

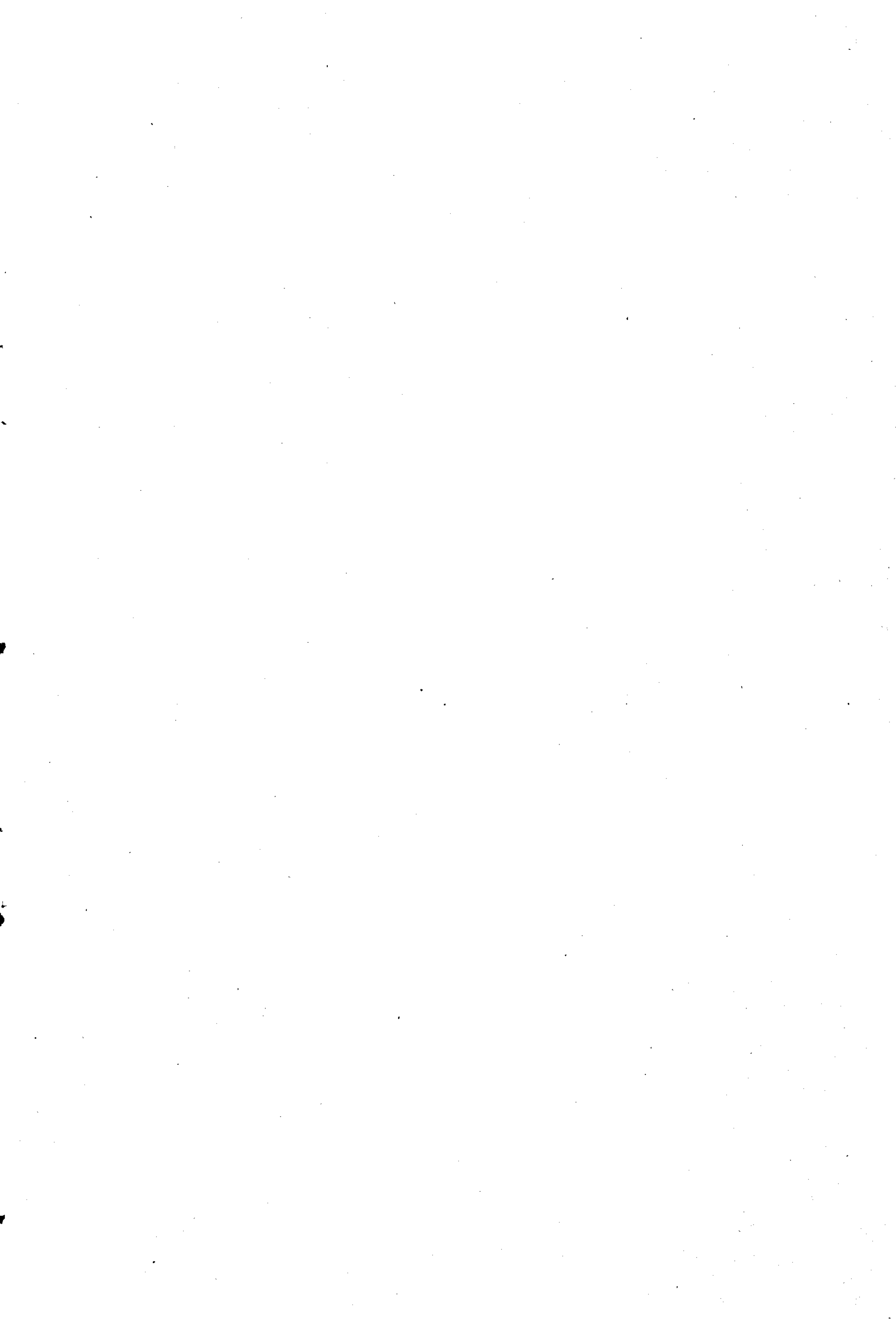
وأفضل قول فى هذا الأمر قول رسول الله ﷺ من حديث عبيد بن خالد السلمى وكانت له صحبة عن النبى ﷺ : « **موت الفجأة أَخْذَةُ أسَفٍ الكافر** » أ. هـ[1] .

وعن عائشة رضى الله عنها : « **أنها راحة للمؤمن وأخذة أسف للكافر** » أ. هـ[2] .

والقول الفصل أن للموت سكرات فَتَحَمُّلُ الإنسانِ لسكرات الموت ورضاؤه واحتسابه وقتها مما لا شك فيه كل ذلك له عند الموت كفارة لذنوبه ، وأما إذا ضجر ولم ترض نفسه ، ولم يصبر كان شراً والعياذ بالله .. ومعلوم أن ذلك بين العبد وربه ، فلا يستطيع البشر وقت الاحتضار معرفة دواخل المحتضر . والله تعالى أعلم .

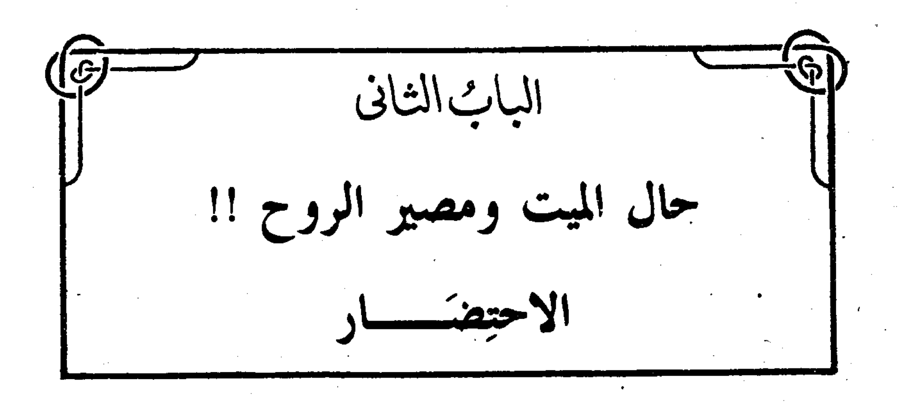
* * *

(١) أخرجه أبو داود بسند صحيح .
(٢) رواه الترمذى .





الباب الثاني
حال الميّت ومصير الروح !!
الاحتضار



الباب الثانى

حال الميت ومصير الروح !!

الاحتِضَـــار

ما ينبغى عنــده :

الاحتضار هو الوقت الذى تخرج فيه الروح، أو الإشراف على الموت، ويكون فيه الإنسان غير طبيعى، فقد تقدم قول موسى عليه السلام عن الاحتضار وصعوبته، وقد ثبت أن رسول الله ﷺ أخذ يبلل يده من رقعة بها ماء حين موته ويقول : «**إن للموت لسكراتٍ**» .

فعند الاحتضار ينبغى على المسلمين أمور :

١ ــ يسن توجيهه إلى القبلة مضطجعاً على شقه الأيمن :

● وذلك للحديث : أن النبى ﷺ لما قدم سأل عن البراء بن معرور فقالوا : توفى وأوصى بثلث ماله لك، وأن يوجه للقبلة لما احتضر، فقال النبى ﷺ : «**أصاب الفطرة** (أى فعل السنة) **وقد رَدَدْتُ ثُلُثَ ماله على ولده**» ثم ذهب فصلى عليه وقال : «**اللهم اغفر له وارحمه وأدخله جنتك**» أ. هـ[١] .

● ولحديث : «أن فاطمة بنت رسول الله ﷺ عند موتها استقبلت القبلة ثم توسدت يمينها» أ. هـ[٢] .

قال الشوكانى : «ووجه الاستدلال بأحاديث توسد اليمين عند النوم على استحباب أن يكون المحتضر عند الموت كذلك ؛ فإن النوم مظنة للموت ،

---

(١) أخرجه البيهقى والحاكم وقال : حديث صحيح عن أبى قتادة .
(٢) أخرجه أحمد عن سلمى أم أبى رافع .

وللإشارة بقوله ﷺ : « **فإن مت من ليلتك فأنت على الفطرة** » بعد قوله : « **ثم اضطجع على شقك الأيمن** » فإنه يظهر منها أن يكون المحتضر على تلك الهيئة » أ. هـ[1] .

٢ ــ يسن لمن حضره أن يلقنه الشهادة :

● للحديث الذى روى عن معاذ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **من كان آخر قوله لا إله إلا الله دخل الجنة** » أ. هـ[2] .

● وعن أبى سعيد عن النبى ﷺ قال :

« **لقنوا موتاكم لا إله إلا الله** » أ. هـ[3] .

والحديثان وغيرهما دليلان على أنه يسن لمن يحضر الميت وقت احتضاره أن يلقنه الشهادتين لتكونا آخر كلامه ، فإذا كانت لا إله إلا الله من موجبات دخول الجنة من غير تقييد بحال الموت ، فالأولى أن توجب ذلك إذا قالها فى وقت لا تعقبه معصية .

قال القرطبى :

(قال علماؤنا : تلقين الموتى هذه الكلمة سنة مأثورة عمل بها المسلمون وذلك ليكون آخر كلامهم لا إله إلا الله فيختم لهم بالسعادة ، وليدخل فى عموم قوله ﷺ : « **من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة** ») أ. هـ. ولينبه المحتضر على ما يدفع به الشيطان ، فإنه يتعرض للمحتضر ليفسد عليه عقيدته .

فإذا تلقنها المحتضر وقالها مرة واحدة فلا تعاد عليه لئلا يضجر ، وقد كره أهل العلم الإكثار من التلقين ، والإلحاح عليه إذا هو تلقاها أو فهم ذلك عنه .

قال ابن المبارك : لقنوا الميت لا إله إلا الله ، فإذا قالها فدعوه . قال أبو محمد عبد الحق : وإنما ذلك لأنه يخاف عليه إذا لح عليه بها أن يتبرم ويضجر ،

---

(١) نيل الأوطار ، الكليات الأزهرية (١٢/٥) .

(٢) رواه أحمد وأبو داود والحاكم وذكره ابن حبان فى الثقات .

(٣) رواه الجماعة إلا البخارى ، ورواه مسلم عن أبى هريرة ، والنسائى عن عائشة ، والطبرانى عن جابر ، وابن ماجه عن عبد الله بن جعفر .

ويثقلها الشيطان عليه ، فيكون سبباً لسوء الخاتمة . وكذلك أمر ابن المبارك أن يفعل به . قال الحسن بن عيسى : قال لى ابن المبارك : لقنّى ـــ يعنى الشهادة ـــ ولا تعد على إلا أن أتكلم بكلام ثان .

والمقصود أن يموت الرجل وليس فى قلبه إلا الله عز وجل لأن المدار على القلب ، وعمل القلب هو الذى ينظر فيه ، وتكون النجاة به ، وأما حركة اللسان دون أن تكون ترجمة عما فى القا فلا فائدة فيها ولا عبرة عندها . أ . هـ[1] .

قال فى فقه السنة :

والتلقين إنما يكون فى حالة ما إذا كان لا ينطق بلفظ الشهادة ، فإن كان ينطق بها فلا معنى لتلقينه .

والتلقين إنما يكون فى الحاضر العقل ، القادر على الكلام ، فإن شارد اللب لا يمكن تلقينه ، والعاجز عن الكلام يردد الشهادة على نفسه ، قال العلماء : وينبغى أن لا يلح عليه فى ذلك . ولا يقول له قل : لا إله إلا الله ، خشية أن يضجر ، فيتكلم بكلام غير لائق ، ولكن يقولها بحيث يسمعه مُعَرِّضاً له ، ليفطن له فيقولها . وإذا أتى بالشهادة مرة لا يعاود التلقين مالم يتكلم بعدها بكلام آخر فيعاد التعريض له به ليكون آخر كلامه .

وجمهور العلماء على أن المحتضر يقتصر فى تلقينه على لفظ (**لا إله إلا الله**) لظاهر الحديث ، ويرى جماعة أن يلقن الشهادتين لأن المقصود تذكر التوحيد وهو يتوقف عليهما . أ . هـ[2] .

وينبغى أن يراعى تلقينه ممن يحب كرجل صالح أو صديق أو أب رحيم ، فلا يلقنه عدو أو حسود أو حقود أو من يكرههم المحتضر لأن المرء لا يتجاوب إلا مع من يحب .

---

(١) **التذكرة** ، (٤٤) ، طبع الكليات ، بتصرف .
(٢) **فقه السنة** ، (٤٢١/١) .

هل يلقن الكافر ؟

قال فى الدين الخالص : هذا التلقين خاص بالمسلم ، أما الكافر المحتضر فيعرض عليه الإسلام لحديث أنس : أن غلاماً يهودياً كان يضع للنبى ﷺ وضوءه ، ويناوله نعليه فمرض فأتاه النبى ﷺ فدخل عليه وأبوه قاعد عند رأسه فقال له النبى ﷺ : « **يا فلان قُل : لا إله إلا الله** » ، فنظر إلى أبيه فسكت أبوه فأعاده عليه النبى ﷺ فنظر إلى أبيه فقال أبوه : أَطِعْ أَطِعْ أبا القاسم ، فقال الغلام : (**أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله**) فخرج النبى ﷺ وهو يقول : « **الحمد لله الذى أخرجه بى من النار** » .

(أخرجه أحمد بسند جيد) أ . هـ .

٣ ــ ويستحب قراءة سورة (يس) عند المحتضر :

● فعن معقل بن يسار قال : قال رسول الله ﷺ : « **اقرءوا يس على موتاكم** » أ . هـ . وفى لفظ « **يس قلب القرآن لا يقرؤها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر له واقرءوها على موتاكم** » أ . هـ[١] .

وذلك لأن السورة تشتمل على أصول العقيدة فهى بمنزلة تلقينه كلمة التوحيد ولأنها تشتمل على ما يرغب العبد فى ثواب الله ، ويرجيه فى رحمته ومغفرته ويخوفه من عذابه ، وأيضاً تُخَفِّفُ عنه من سكرات الموت بما تشتمل عليه .

ما يسن فعله عقب الموت :

١ ــ إغماض عينيه ، وذلك بأن يطبق أحد الجفنين على الآخر .

● فعن شداد بن أوس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « **إذا حضرتم موتاكم فأغمضوا البصر ، فإن البصر يتبع الروح ، وقولوا خيراً فإنه يؤمن على ما قال أهل البيت** » أ . هـ[٢] .

---

(١) رواه أبو داود وابن ماجه والنسائى وابن حبان وصححه ، وأحمد واللفظ له .

(٢) رواه أحمد والطبرانى وابن ماجه والحاكم والبزار .

قوله : « **فإن البصر يتبع الروح** » قال النووى : معناه إذا خرج الروح من الجسد تبعه البصر ناظراً إلى أين تذهب . قال : وفى الروح لغتان التذكير والتأنيث قال : وفيه دليل لمذهب أصحابنا المتكلمين ، ومن وافقهم أن الروح أجسام لطيفة متخللة البدن ، وتذهب الحياة عن الجسد بذهابها وليس عرضاً كما قال آخرون ولا دماً كما قاله آخرون . وفيها كلام متشعب للمتكلمين . أ . هـ[1] وسيأتى تفصيل ذلك .

٢ ـ يسن أن يشد لحى الميت بعصابة فلا ينفتح فمه فيسوء منظره وربما يدخل فيه شئ يؤذيه .

٣ ـ ويسن تليين مفاصله ، وذلك بشد ذراعيه وإرخائهما ، وبشد رجليه وإرخائهما مرة أو مرتين ، وبشد فخذيه إلى بطنه ويرخيهما حتى لا تتصلب مفاصله فيصعب تكفينه .

٤ ـ ويستحب خلع ملابسه التى مات فيها ، فإن الملابس تمد الجسد بالحرارة فيسرع إليه الفساد .

٥ ـ يستحب أن يوضع على سريره ونحوه تكريماً له ، ولكيلا تصيبه نداوة الأرض فتغيره .

٦ ـ ويتسحب وضع شئ ثقيل على بطنه إذا ظن انفجارها لتأخير الدفن قليلاً لحين حضور أقاربه وأصدقائه .

٧ ـ وينسن تغطية الميت بثوب يستره .

٨ ـ يطلب ممن حضر عند الميت ألا يقول إلا خيراً كالذكر والاستغفار ، وأن يدعو له بالمغفرة ولأهله بحسن العاقبة ، كما يفعل من حضره عند احتضاره .

٩ ـ يجوز تقبيل الميت عند كثير من العلماء ، وقد فعلها جماعة من الصحابة .

---

(١) نيل الأوطار (٢٢/٥) .

١٠ــ ينبغى على ورثة الميت أن يسارعوا إلى قضاء دينه إن كان عليه دين ، وعلى المصلحين ممن حضروه أن يحثوهم على ذلك ، فإن روح الميت مرهونة بدينه .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « **نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يقضى عنه** » أ. هـ[١] .

* وفى الحديث الحث للورثة على قضاء دين الميت ، والإخبار لهم بأن نفسه معلقة بدينه حتى يقضى عنه وهذا مقيد بمن له مال يقضى منه دينه .

* وأما من لا مال له ومات عازماً على القضاء فقد ورد فى الأحاديث ما يدل على أن الله تعالى يقضى عنه ، بل ثبت أنه مجرد محبة المديون عند موته للقضاء موجبة لتولى الله سبحانه وتعالى لقضاء دينه ، وإن كان له مال ولم يقض منه الورثة . فقد أخرج الطبرانى عن أبى أمامة مرفوعاً « **من دان بدين ، فى نفسه وفاؤه ، ومات تجاوز الله عنه ، وأرضى غريمه بما شاء ، ومن دان بدين وليس فى نفسه وفاؤه ومات اقتص الله لغريمه منه يوم القيامة** » أ. هـ .

١١ــ يستحب لأوليائه أن يبادروا بإخراج وصيته وتغسيله وتكفينه والصلاة عليه ودفنه متى تحقق موته حتى لا يتغير فيقبح منظره ، والإسراع بتجهيزه يخفف من حدة البكاء والعويل عليه .

فقد وردت آثار يقوى بعضها بعضاً منها :

● عن على رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« **ثلاثة ياعلى لا تؤخروهن : الصلاة إذا آذنت[٢] ، والجنازة إذا حضرت ، والأيِّم[٣] ، إذا وجدت كفئاً** » أ. هـ[٤] .

● قال أُبىّ بن كعب : إن آدم عليه السلام قبضته الملائكة وغسلوه وكفنوه وحنطوه وحفروا له وصلوا عليه ثم دخلوا قبره فوضعوه فيه ، ووضعوا

(١) رواه أحمد وابن ماجه والترمذى وقال : حديث حسن ، والحديث رجال إسناده ثِقاتٌ إلا عمر ابن أبى سلمة بن عبد الرحمن ، وهو صدوق يخطىء . (٢) آذنت : أى حضر وقتها .
(٣) الأيم : المرأة التى توفى عنها زوجها . (٤) أخرجه الإمام أحمد وابن ماجه وابن حبان .

اللَّبن[١] ثم خرجوا من القبر ثم حثوا عليه التراب ، ثم قالوا : يا بنى آدم هذه سنتكم[٢] . أ. هـ[٣] .

خواتيم الأعمال :

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« **إن الرجل ليعمل الزمان الطويل بعمل أهل الجنة ، ثم يُخْتَمُ له عمله بعمل أهل النار ، وإن الرجل ليعمل الزمان الطويل بعمل أهل النار ، ثم يختم له بعمل أهل الجنة** » أ. هـ[٤] .

وعن سهل بن سعد عن النبى ﷺ قال : « **إن العبد ليعمل عمل أهل النار وإنه من أهل الجنة ، ويعمل عمل أهل الجنة وإنه من أهل النار ، وإنما الأعمال بالخواتيم** » أ. هـ[٥] .

وقالت عائشة رضى الله عنها : كان النبى ﷺ يقول : « **يا مُقَلِّبَ القلوب ثبت قلبى على طاعتك** » فقلت : يارسول الله ، إنك تُكْثِرُ أن تدعوَ بهذا الدعاء ، فهل تخشى ؟ . قال : « **وما يؤمننى يا عائشة وقلوب العباد بين أصبعين من أصابع الجبار إذا أراد أن يقلب قلب عبده قلبه** » أ. هـ[٦] .

ويروى أنه كان بمصر رجل ملتزم مسجدٍ للأذان والصلاة وعليه بهاء العبادة ، وأنوار الطاعة ، فرقى يوماً المنارة على عادته للأذان ، وكان تحت المنارة دار لنصرانى ذمى ، فاطلع فيها فرأى ابنة صاحب الدار ، فافتتن بها وترك الأذان ، ونزل إليها ودخل الدار فقالت له : ما شأنك وما تريد ؟ فقال : أنتِ أريد . قالت : لماذا ؟ قال لها : قد سلبت لبى وأخذت بمجامع قلبى ! قالت :

---

(١) اللبن : الطوب الذى لم يحرق . وتنطق مثل كَتِف وإبل .

(٢) هذه سنتكم : أى طريقتكم فى تجهيز موتاكم ، وسيأتى الكلام عن المقابر الشرعية إن شاء الله .

(٣) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل فى زوائد المسند ، كذلك أخرجه الحاكم وقال : صحيح الإسناد . والحق أن الحديث موقوف على أُبىّ بن كعب لأنه لم يرفعه إلى النبى ﷺ ، ولكن يحتمل أن يكون قد سمعه منه ، ومعنى الحديث الموقوف : ما انتهى إلى الصحابى ، والحديث المرفوع ما رفعه الصحابى إلى النبى ﷺ ، كأن قال مثلاً : قال رسول الله ﷺ كذا وكذا .

(٤) أخرجه مسلم . (٥) أخرجه البخارى . (٦) ذكره القرطبى فى التذكرة (٥٣/١) .

لا أجيبك إلى ريبة . قال لها : أتزوجك . قالت له : أنت مسلم وأنا نصرانية وأبى لا يزوجنى منك . قال لها : أتنصر . قالت : إن فعلت أفعل . فتنصر ليتزوجها ، وأقام معهم فى الدار ، فلما كان فى أثناء ذلك اليوم رقى إلى سطح كان فى الدار فسقط منه فمات ، فلا هو بدينه ولا هو بها . فنعوذ بالله ثم نعوذ بالله من سوء العاقبة وسوء الخاتمة .

قال الإمام القرطبى :

قال أبو محمد عبد الحق : اعلم أن سوء الخاتمة ــ أعاذنا الله منها ــ لا تكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه ، ما سمع بهذا ولا علم به ــ والحمد لله ــ وإنما تكون لمن كان له فساد فى العقل ، أو إصرار على الكبائر ، وإقدام على العظائم ، فربما غلب ذلك عليه حتى ينزل به الموت قبل التوبة ، فيصطلمه[1] الشيطان عند تلك الصدمة ، ويختطفه عند تلك الدهشة ، والعياذ بالله ، ثم العياذ بالله ، فيكون ذلك سبباً لسوء خاتمته وشؤم عاقبته ، كإبليس الذى عَبَدَ الله فيما يروى ثمانين ألف سنة ، وبلعام بن باعوراء الذى آتاه الله آياته فانسلخ منها بخلوده إلى الأرض ، واتباع هواه ، وبرصيصا العابد الذى قال الله فى حقه : ﴿ **كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر** ﴾[2] .

وصدق القائل :

تحيرت الأقلام فى ذا الورى	**بالختم من أمر الحكيم العليم**
فمن سعيد وشقى ومن	**مُثْرٍ من المال وعارٍ عديم**
ومن عزيز رأسه فى السها	**ومن ذليل وجهه فى التخوم**
ومن صحيح شُيِّدَت أركانه	**وآخرَ واهى المبانى سقيم**
كلٌّ على مناهجه سالكٌ	**﴿ذلك تقدير العزيز العليم﴾**

* إذن فالمؤمن الحق الذى يثبت فى الشدائد ووقت الصعاب ، ويعلم أن

---

(١) فيصطلمه : يتصدى له ويشتد فى وسوسته ، واصطلمه : استأصله .

(٢) سورة الحشر ، آية : ١٦ . وبلعام وإبليس وبرصيصا ممن ساءت خواتمهم فالمدار على حسن الخاتمة وتثبيت المولى سبحانه وتعالى لقلب عبده على الإيمان .

الدنيا حقيرٌ أمرُها ،فمهما علا فيها شئ فهو حقير ، ومهما عظم فيها أمر فهو ضئيل ، وإنما الباق هو ما يبقى له عند الله .. وأن الناس زائلون .. إذا علم ذلك وطبقه في منهج سلوكه ، وأكثر الدعاء من وقت لآخر أن يثبت الله سبحانه قلبه على الإيمان فسيكتب الله له حسن الخاتمة إن شاء الله تعالى .

رُسُل الموت قبل الوفاة :

جاء فى التذكرة :

(ورد فى الخبر : أن بعض الأنبياء عليهم السلام قال لملك الموت عليه السلام : أما لك رسول تقدمه بين يديك ليكون الناس على حذر منك ؟ قال : نعم لى — والله — رُسلٌ كثيرة من الأعلال والأمراض والشيب والهموم وتغير السمع والبصر ، فإذا لم يتذكر من نزل به ذلك ولم يتب ، فإذا قبضته ناديته : ألم أقدم إليك رسولاً بعد رسول ، ونذيراً بعد نذير ؟ فما من يوم تطلع فيه شمس ولا تغرب إلا وملك الموت ينادى : أبناء الأربعين : هذا وقت أخذ الزاد ؛ أذهانكم حاضرة ، وأعضاؤكم قوية شداد .

ياأبناء الخمسين : قد دنا وقت الأخذ والحصاد ، وياأبناء الستين : نسيتم العقاب ، وغفلتم عن رد الجواب فما لكم من نصير ﴿ **أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير** ﴾[1] ، ذكره أبو الفرج الجوزى فى روضته المشتاقة) أ. هـ .

* وروى أن ملك الموت دخل على داود عليه السلام فقال : من أنت ؟ فقال : من لا يهاب الملوك ، ولا يمنع من القصور ، ولا يقبل الرُّشا ، قال : فإذاً أنت ملك الموت ؟ قال : نعم ، قال : أتيتنى ولم أستعد بعد ! قال : ياداود أين فلان قريبك ؟ أين فلان جارك ؟ قال : مات ، قال : أما كان لك فى هؤلاء عبرة لتستعد ؟! .

● وصدق القاضى منذر بن سعيد البلوطى رحمه الله تعالى حينما قال :

كم تَصَابَى وقد عَلَاكَ المشيبُ ... وتَعاطَى جهلاً وأنت اللبيبُ ؟!

(١) سورة فاطر ، آية : ٣٧ .

كيف تلهو وقد أتاك نذير وشِباكُ الحِمامِ[1] منك قريب
يا مقيماً قد حان منه رحيل بعد ذاك الرحيل يوم عصيب
إن للموت سكرة فارتقبها لا يداويك ـ إن أتتك ـ طبيب
ثم تثوى حتى تصير رهيناً ثم تأتيك دعوة فتجيب
بأمور المعاد أنت عليم فاعملن جاهداً لها يا أريب[2]
وتذكر يوماً تحاسب فيه إن من يذكر الممات ينيب
ليس فى ساعة من الدهر إلا للمنايا عليك فيها رقيب
كل يوم ترميك منها بسهم إن يخطىء يوماً فسوف يصيب

*اعلم وفقك الله أنه ليس للموت سن معلوم ولا وقت معلوم؛ فالكل يجب أن يكون على أهبة الاستعداد للقاء رب العالمين أحكم الحاكمين . خاصة الذين علا الشيبُ رءوسَهم أو انحنت ظهورهم ، أو خارت قواهم فتلك رسل مؤكدة ، ونذر صادقة على قرب الموت .

◉ صِفة مَلك المَوْت

قال القرطبى :

قال علماؤنا رحمهم الله : وأما مشاهدة ملك الموت عليه السلام وما يدخل على القلب منه من الروع والفزع ، فهو أمر لا يعبر عنه لعظم هوله وفظاعة رؤيته ، ولا يعلم حقيقة ذلك إلا الذى يتبدى له ويطلع عليه ، وإنما هى أمثال تضرب وحكايات تروى .

روى عن عكرمة أنه قال : رأيت فى بعض صحف شيث أن آدم عليه السلام قال :

يارب : أرنى ملك الموت حتى أنْظر إليه .. فأوحى الله تعالى إليه : إن له صفات لا تقدر على النظر إليها ، وسأنزله عليك فى الصورة التى يأتى فيها الأنبياء والصالحين والمصطفين . فأنزل الله عليه جبريل وميكائيل ، وأتاه ملك

(١) الحمام : الموت . (٢) الأريب : الذكى .

الموت فى صورة كبش أملح قد نشر من أجنحته أربعة آلاف جناح ، منها جناح جاوز السموات والأرض ، وجناح جاوز الأرضين ، وجناح جاوز أقصى المشرق ، وجناح جاوز أقصى المغرب ، وإذا بين يديه الأرض بما اشتملت عليه من الجبال والسهول والغياض والجن والإنس والدواب ، وما أحاط بها من البحار ، وما علاها من الأجواء فى ثغْرةِ نَحرِه[1] ، كالخردلة فى فلاة من الأرض ، وإذا له عيون لا يفتحها إلا فى مواضع فتحها ، وأجنحة للكفار فيها سفافيد وكلاليب ومقاريض[2] ، فصعق آدم صعقة لبث فيها إلى مثل الساعة من اليوم السابع ، ثم أفاق وكأن فى عروقه الزعفران . أ. هـ .

ذكر هذا الخبر ابن ظفر الواعظ المكنى أبو هاشم محمد بن محمد فى كتاب النصائح .

قال ابن عباس : كان إبراهيم عليه السلام رجلاً غيوراً ، وكان له بيت يتعبد فيه ، فإذا خرج أغلقه ، فرجع ذات يوم فإذا هو برجل فى جوف البيت ، فقال : من أدخلك دارى ؟ قال : أدخلنيها ربها ، قال إبراهيم : أنا ربها . قال : أدخلنيها من هو أملك بها منك . قال : فمن أنت من الملائكة ؟ قال : أنا ملك الموت . قال : أتستطيع أن ترينى الصورة التى تقبض فيها روح المؤمن ؟ . قال : نعم ، ثم التفت إبراهيم فإذا هو بشاب ، فذكر من حسن وجهه وحسن ثيابه وطيب رائحته ، فقال : ياملك الموت : لو لم يلق المؤمن عند الموت إلا صورتك لكان حسبه ! ثم قبض روحه عليه السلام .

قال القرطبى : (قال علماؤنا رحمة الله عليهم : لا يتعجب من كون ملك الموت يرى على صورتين لشخصين ، فما ذلك إلا مثل ما يصيب الإنسان بتغير الخلقة فى الصحة والمرض ، والصغر والشباب والهرم ، وكصفاء اللون بملازمة الحمام وشحوب الوجه بتغير اللون بلفح الهواجر[3] فى السفر ، غير أن

---

(١) الثغرة : بالضم نقرة النحر بين الترقوتين ، والمراد صغر الأرض .

(٢) الكلاليب : أداة تحكم فى الشئ ، مقاريض : أداة قرض (كالمبرد) مثلاً تنحل فى الشئ . وسفافيد : حديد يشوى عليه اللحم .

(٣) الهواجر : من (الهجير) نصف النهار عند اشتداد الحر .

طبيعة الملائكة عليهم السلام يجرى ذلك منهم فى اليوم الواحد والساعة الواحدة ، وإن لم يجر هذا على الإنسان إلا فى الأوقات المتباعدة والسنين المتطاولة ، وهذا بين فتأمله) .

والثابت فى السنة أن ملك الموت يأتى المؤمن على صورة حسنة تبشر بالخير ، ويأتى الكافر على صورة سيئة لا تبشر إلا بالشر .

* * *

◉ قل الرُّوح من أمر ربى

قال تعالى :

﴿ ويسألونك عن الرُّوح قل الرُّوح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾[1] .

فإذا جلست بجوار محتضر رأيته قد سكن فجأة بعد حركة ، وانشل لسانه بعدكلام ،وتغير حاله من واقع إلى آخر .. وذلك لخروج روحه ، فما الروح ؟ وهل تستطيع يوماً أن تصل إلى حقيقتها ؟

قال العقاد :

مسألة الروح أعضل مسائل العلم والفلسفة ، ومذاهب التفكير على التعميم منذ فكر الإنسان فى حقائق الأشياء ، بين جميع أصحاب النِحل والآراء فى جميع العصور[2] .

وقـــال :

وسواء فهمنا من الروح أنها جوهر مجرد تقوم به حياة الأجساد ، أو فهمنا كما يفهم الماديون أنها ظاهرة الحياة فى تركيبة من تراكيب المادة ، فلا يزال العلم بحقيقتها قليلاً أو أقل من القليل .

---

(١) سورة الإسراء ، آية : ٨٥ .

(٢) الفلسفة القرآنية (١٠٣) ، دار الإسلام بالقاهرة ، ط دار العلوم للطباعة .

لأن الماديين الذين يعتبرونها قوة من قوى المادة لم يخرجوا عن تسجيل الحس كما يرونه ، ولم يستطيعوا قط تقليل الفارق بين الخلية المادية والخلية الحية بعلة من العلل المادية نفسها ، فضلاً عن العلل التى تتجاوز المادة إلى ما وراءها ولم ينكروا أن الفارق عظيم ، وأنه أبعد فارق بين شيئين من هذه الأشياء التى تقع فى الكون المحسوس أو الكون المعقول . فمن معجزات القرآن أنه وضعها هذا الموضع الصحيح من الفلسفة والعلم ، وجعلها أعضل المعضلات التى يتساءل عنها الناس بغير استثناء .

ويزيد فى تقدير هذه المعجزة أن القرآن لم يستكثر على الفكر الإنسانى أن يخوض فى المسألة الإلهية ، وأن يصل إلى الإيمان بالله من طريق البحث والاستدلال والنظر فى آيات الخلق وعجائب الطبيعة .

فالعقل يهتدى إلى وجود الله من النظر فى وجود الأشياء ، ووجود الأحياء .. ولكنه لا يهتدى إلى حقيقة الروح من هذا الطريق ، ولا يذهب فيها مذهباً أبعد ولا أعمق من الإحالة إلى مصدر الموجودات جميعاً ، وهى إرادة الله أو أمر الله .

* وقد عجب بعض المفسرين لذلك ، وراحوا يتساءلون أتكون مسألة الروح أكبر من المسألة الإلهية ، وهى غاية الغايات فى سبح العقول ؟!

ولكنهم فى الواقع يرجعون بالعجب إلى غير مرجعه الأصيل ، لأن المعضلة الفكرية لا تبلغ الإعضال بمقدار عظمتها واتساعها بل بمقدار دقتها وخفائها ، وقد تكون عوارض الشمس أوضح فى رأى العلماء من عوارض الذرة الخفية ، وبينهما من التفاوت فى القدر ذلك الأمد البعيد .

* وقد أجمل الإمام الرازى أسباب هذا الإعضال فى مسألة الروح فقال :

« إنهم سألوا عن الروح وأنه صلوات الله عليه وسلامه أجابهم عنه على أحسن الوجوه .. وبيانه أن المذكور فى الآية أنهم سألوه عن الروح والسؤال يقع على وجوه » :

« أحدها أن يقال : ماهيته ؟ .. هل هو متحيز أو حال فى المتحيز أو

موجود غير متحيِّز ولا حال فيه ؟ .

« وثانيها أن يقال : أهو قديم أو حادث » .

« وثالثها أن يقال : هل هو يبقى بعد فناء الأجسام أو يفنى ؟ » .

« ورابعها أن يقال : ماحقيقة سعادة الأرواح وشقاوتها ؟ » أ . هـ[1] .

ثم قال نقلاً عن الرازى :

« وليست فى الآية دلالة على أنهم عن أى هذه المسائل سألوا ، إلا أنه تعالى ذكر فى الجواب ﴿ **قل الروح من أمر ربى** ﴾[2] وهذا الجواب لا يليق إلا بسؤالين : أحدهما السؤال عن الماهية أهو عبارة عن أجسام موجودة فى داخل البدن متولدة عن امتزاج الطبائع والأخلاط ؟ أو عبارة عن نفس هذا المزاج والتركيب، أو عن عرض آخر قائم بهذه الأجسام ، أو عن موجود يغاير هذه الأشياء ؟ فأجاب الله تعالى بأنه موجود مغاير لهذه الأشياء ، بل هو جوهر بسيط مجرد لا يحدث إلا بمحدث قوله ﴿ **كُن فيكون** ﴾ . فهو موجود من أمر الله وتكوينه وتأثيره فى إفادة الحياة للجسد ، ولا يلزم من عدم العلم بحقيقته المخصوصة نفيه مطلقاً وهو المقصود من قوله : ﴿ **وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** ﴾ .

وثانيهما السؤال عن قدمها وحدوثها ، فإن لفظ الأمر قد جاء بمعنى الفعل كقوله تعالى : ﴿ **وما أمر فرعون برشيد** ﴾[3] فقوله ﴿ **من أمر ربى** ﴾ معناه من فعل ربى ، فهذا الجواب يدل على أنهم سألوه عن قدمه وحدوثه ، فقال : بل

---

(١) المصدر السابق .

بيد أننا نختلف مع الأستاذ الكبير فى إطلاقه لفظة (الفلسفة) لأنها تعنى إبطال كل شىء ، وإعمال العقل وحده ليصل بنفسه من نفسه إلى الحقائق ، والحق أن العقل قاصر بتمامه ـ أى أنه لو تم عقل إنسان فى الوجود وبلغ منتهى الإدراك فهو قاصر .

ولذلك فإن الإسلام قد اتبع طريقة معينة فى خطاب العقل ، لذا فرض عليه أولاً ، ثم ناقشه بحكمه ، وجعله يعمل بفكر فى الأشياء حتى يصل بنفسه إلى الحقائق ، فهو قد بين له الشىء أولاً ، وأعطاه الحق فى التفكير ليصل هو بنفسه إلى أن هذه الحقائق حقائق بالفعل ، لذلك فإننا نقول : فرق بين الإسلام والفلسفة ، ولكن الأستاذ الكبير ـ والحق يقال ـ استعمل اللفظة على أنها علم وبحث أو منهجية القرآن مثلاً : والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

(٢) سورة الإسراء : آية : ٨٥   (٣) سورة هود ، آية : ٩٧

هو حادث ، وإنما حصل بفعل الله وتكوينه ، ثم احتج على حدوثه بقوله : ﴿ **وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** ﴾ . يعنى أن الأرواح فى مبدأ الفطرة خالية من العلوم كلها ، ثم تحصل فيها المعارف والعلوم ، فهى لا تزال متغيرة من حال إلى حال والتغير من أمارات الحدوث » أ. هـ .

ثم قال معقباً على رأى الرازى :

(وتلخيص الإمام الرازى للمعضلة شامل لجوانبها المتعددة ، كما بدت للمفكرين من الفلاسفة الأقدمين ، وبخاصة علماء الكلام) أ. هـ[1] .

رأى الأقدمين والمحدثين :

رأى الأقدمين :

منهم من قال : إن الروح أجسام لطيفة سارية فى البدن سريان ماء الورد فى الورد باقية من أول العمر إلى آخره لا يتطرق إليه تحلل ولا تبدل ، حتى إذا قطع عضو من البدن انقبض ما فيه من تلك الأجزاء إلى سائر الأعضاء .

ومنهم من قال : إنه جزء لا يتجزأ فى القلب ، أو قال : إنه جسم هوائى فى القلب ،أو قال : إنه جسم هوائى فى الدماغ ، أو قال : إنه قوة فى الدماغ وهو مبدأ الحس والحركة ، أو قال : إنه أجزاء نارية وهى المسماة بالحرارة الغريزية ؟ أو قال : إنه الدم المعتدل تقوى الحياة باعتداله وتفنى بفنائه ، أو قال : إنه جسم بخارى يتكون من لطافة الاختلاط وبخاريتها لتكون الأخلاط من كثافتها ، وهو الحامل للقوى الثلاث : وهى قوة الروح الحيوانى ، وقوة الروح النفسانى ، وقوة الروح الطبيعى . ومنهم من قال : بأن الروح جوهر مجرد يتفاوت فى التجرد والصفاء ، فهو فى العارفين الخالصين أصفى منه فى غيرهم من ذوى الأرواح .

رأى المحدثين :

المحدثون فى الجملة بين قولين : قول بنشوء الحياة من جوهر مجرد ، وقول

---

(١) السابق (١٠٤) .

بنشوئها من استعداد فى المادة يظهر مع التطور والتركيب ، وليس بين القائلين بالجوهر المجرد من الأقدمين والمحدثين اختلاف كبير فى غير أسلوب التعبير .

قال العقاد :

(ولا نظن أن المحدثين جاءوابفرض من الفروض فى تفسير الروح لم يسبقهم إليه الأقدمون ، مع ملاحظة الفارق فى بحوث علم الحياة ووظائف الأعضاء بين علماء اليوم وعلماء الزمن القديم) أ . هـ[1] .

مقارنة بين المحدثين والأقدمين :

فالمحدثون يقولون : إن الجسم لا ينشئ الحياة ولا طاقة للمادة بتوليد القوة الحيوية ، ولكنها إذا بلغت مبلغاً معلوماً من الاستعداد صلحت لحلول الروح فيها وتهيأت لخدمتها .. مثلها فى ذلك مثل الجهاز الذى يصلح بالتركيب لقبول الكهرباء ، فإن أجزاءه المتفرقة لا تتحرك ولا تقبل العمل الكهربى إذا بقيت على تفرقها ، أو اجتمعت على نحو غير النحو الصالح لاستقبال التيار وتلبية حركاتها متى تم تركيبها على النحو المعروف .

والأقدمون يقولون بمثل ذلك ، ولكنهم يعبرون عنه بأسلوبهم المنطقى الذى يستخدمونه للتمييز بين الصور والأجسام .. فالروح عندهم « كمال أول لجسم طبيعى آلى » .

والكمال عندهم هو الذى تتحقق به ماهية الشئ .. وهو قسمان : قسم يصدر منه الفعل وهو الكمال الأول .. وقسم هو الفعل نفسه وهو الكمال الثانى .

والكمال جسم آلى لا تتحق له الإنسانية إلا بحلول الروح فيه ، فلا تتحقق له الإنسانية بمجرد وجود الأعضاء فيه ، بل باستقبال هذه الأعضاء لمصدر فعلها وحركتها ، وهوالروح ؛فالروح إذن هى الكمال الأول لتركيب جسم الإنسان .

---

(١) المصدر السابق (١٠٥) .

* ودليل الأقدمين على أن الروح جوهر مجرد يلخصه الشهرستاني في كتاب : « نهاية الإقدام في علم الكلام » إذ يقول :

(إن العلم المجرد الكلي لا يجوز أن يحل في جسم ، وكل ما لا يجوز أن يحل في جسم فإذا حل ففي غير جسم ،فالعلم المجرد الكلي إذا حل حل في غير جسم) ويؤيد ذلك أنه غير قابل للانقسام .

ويوشك الأقدمون والمحدثون أن يتلاقوا في توضيح المشكلة التي تنجم عن القول بتجرد الروح ثم القول بتأثيرها في الأجسام .

فالأقدمون يجعلون الجواهر المجردة درجات في التلبس بالمادة وقابلية الاشتراك معها في عملها ، فلا يؤثر الجوهر في المادة مباشرة بل يؤثر فيها بواسطة جوهر يقاربه من جهة ، ويقارب المادة من جهة أخرى .

* والمحدثون يقيمون هذه القنطرة بين العالمين ــ عالم الروح وعالم المادة ــ بفروض كثيرة .. منها : أن الغدة الصنوبرية في الدماغ هي ملتقى الروح بالجسد ، ومنها :أن يرتفعوا بالمادة الجسدية إلى غايتها من الصفاء لكي تتقبل الأثر من عالم الروح ،ومنها : أن يزيلوا العجب من تأثير الأرواح في الأجسام بقولهم : إن تأثير الروح في الجسد ليس بأعجب من هذه المؤثرات التي نراها تقع في الأجسام ، فلا داعي للجزم بامتناع أثر الجوهر المجرد في صورة المادة على اختلافها بين الجوامد والأحياء ... كل فرض من هذه الفروض لا يزعم صاحبه أنه قال في معضلة الروح قولاً يغنيه عن التمثيل في هذه المعضلة بالآية القرآنية الكريمة :

﴿ قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾[1] .

* وأفضل ما قرأته في الروح ما قاله عالم جليل[2] :

اعلم أن الروح والقلب والنفس والعقل قد يطلق كل منها على معنى

(١) سورة الإسراء : آية ٨٥ .

(٢) الأستاذ الشيخ/ إبراهيم أفندي علي ، كان مدرساً بالمدرسة الخديوية ونقلنا عنه ما كتبه سنة ١٣٢٨ هـ .

خاص ، وقد تترادف جميعها على معنى مشترك بينها .

* أما الأول : فإيضاحه أن الروح تطلق عند جمهور أهل السنة على جسم لطيف شفاف مشتبك بالجسم اشتباك الماء بالعود الأخضر . وللطافتها تنجذب بسرعة وتنضم إلى بعضها فلا يقطع جزء منها عند قطع عضو من الجسم . وعند بعضهم على جسم لطيف ينبع من القلب ويفيض نوره بواسطة النوابض على جميع أجزاء الجسم فيضان النور من السراج بواسطة دورانه فى زوايا البيت على جميع أجزائه التى حصل فيها الدوران . وعند المعتزلة على جوهر مجرد متعلق بالبدن لتدبيره غير داخل فيه ولا خارج عنه .

وقد أكد الدكتور (مكدوكال الأمريكى) وإخوانه أنها ذات وزن قدره أوقية تقريباً بناء على اختبار أجْروه على أجسام كثيرة ساعة الموت ، فإنهم رأوا تلك الأجسام نقصت فجأة بمقدار يبقى بعد إسقاط ما يكون بالجسم من الهواء المائى للرئتين وغيره أوقيةتقريباً ،وهذا إن صح يؤيد مذهب أهل السنة .

هذه أقوالهم فى حال الحياة ، وأما بعد الممات فالصحيح أنها باقية إما سعيدة وإما شقية .

* وأن القلب يطلق على كتلة من اللحم صنوبرية الشكل ذات تجاويف مودعة فى الجانب الأيسر من الصدر .

* وأن النفس تطلق على المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة فى الإنسان وهذا الإطلاق هو المعنى بقوله ﷺ :

« **أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك** »

* وأن العقل يطلق على العلم بحقائق الأمور فهو إذن الإدراك .

* وأما الثانى فبيانه : أن هناك لطيفة ربانية روحانية هى حقيقة الإنسان العالم العارف المخاطب المعاقب المطالب . وهذه اللطيفة يطلق عليها الروح تارة وتكون هى المرادة بقوله تعالى : ﴿ **قل الروح من أمر ربى** ﴾ ، والقلب تارة أخرى لأن لها بالقلب الجسمانى تعلقاً يشبه تعلق العرض بالجوهر والوصف

بالموصوف ، والنفس طوراً آخر ولكنها إن سكنت تحت الأمر ولم يعرها اضطراب بمعارضة الشهوات سميت النفس المطمئنة . وإن لم يكمل سكونها ولكن وقع منها دفاع ومعارضة للميل للمخالفات سميت اللوامة . وإن تركت الدفاع ومالت إلى موافقة الشهوات سميت الأمارة بالسوء ، والعقل طوراً آخر فهو إذن محل الإدراك أى المدرك ، وهو المراد بقوله ﷺ : « **أول ما خلق العقل** .. إلخ» لأنه لا يمكن خلق العرض وهو الإدراك قبل خلق المحل وهو المدرك . ولأنه لا يمكن خطاب العرض وقد خاطبه الله تعالى) أ . هـ .

وأخـــيراً :

فكل فرض من الفروض السابقة لا يستطيع قائلها أن يزعم أنه قال فى معضلة الروح قولاً يغنيه عن التمثل فى هذه المعضلة بالآية :

﴿ **ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** ﴾ .

ولن يستطيع إنسان أن يصل إلى كنهها يوماً .. ذلك أنها من أمرالله ،أما ما سبق فقد كان محاولة للتعرف على عملها وسريانها على سبيل الفرض .

* * *

◉ هل يُبشَّر الميِّتُ قبلَ موْته ؟

قال ابن مسعود : إذا جاء ملك الموت ليقبض روح المؤمن قال : ربك يقرئك السلام .

* وقال ابن المبارك : أخبرنا حيوة قال : أخبرنى أبو صخر عن محمد بن كعب القرظى قال :

إذا استنقعت[1] نفس العبد المؤمن جاءه ملك الموت فقال : السلام عليك ياولى الله ، الله يقرئك السلام ثم نزع بهذه الآية .

(١) استنقعت : أى إذا اجتمعت فى فيه حين تريد أن تخرج كما يستنقع الماء فى قراره .

﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ﴾[1] .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **إن المؤمن إذا احتضر أتته الملائكة بحريرة فيها مسك وضباير ريحان[2] فتسل روحه كما تسل الشعرة من العجين ويقال : ﴿ يـأيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية ﴾[3] مرضياً عنك إلى روح الله وكرامته ، فإذا خرجت روحه وضعت على ذلك المسك والريحان وطويت عليها الحريرة وذهب بها إلى عليين .**

وإن الكافر إذا احتضر أتته الملائكة بمسح فيه جمرة ، فتنزع روحه انتزاعاً شديداً ويقال : أيتها النفس الخبيثة اخرجى ساخطة مسخوطاً عليك إلى هوان الله وعذابه ، فإذا أخرجت وضعت على تلك الجمرة ، ويطوى عليها المسح ويذهب بها إلى سجين » أ . هـ[4] .

قال القرطبى رحمه الله : (فقوله فى روح المؤمن : يذهب بها إلى عليين هو معنى ما جاء فى حديث أبى هريرة المتقدم إلى السماء التى فيها الله ، والأحاديث يفسر بعضها بعضاً ولا إشكال) أ . هـ .

* أراد الإمام القرطبى أن يبين من قولته أن الروح تصعد إلى السماء وساق هذا الحديث للاستدلال به .

* هذا وسيأتى حديث البراء بن عازب يدل على أن الميت يبشر قبل موته إن كان من أهل الجنة أو من أهل النار ! اللهم إنا نسألك أن تجعلنا من أهل الجنة وأن تباعد بيننا وبين النار كما باعدت بين المشرق والمغرب .

* * *

---

(١) سورة النحل ، آية : ٣٢ .

(٢) ضباير ريحان : قماش منضوح بالريحان ، وهو نبات ذو رائحة طيبة .

(٣) سورة الفجر ، الآيتان : ٢٧ ، ٢٨ .

(٤) أخرجه البزار ، وذكره القرطبى فى التذكرة (٧٤/١) .

⊙ قبْضُ الرُّوح

روى عن عُمرَ أنه قال :

إذا قبض مَلَكُ الموت رُوحَ المؤمن قام على عتبة الباب ، ولأهل البيت ضجة ، فمنهم الصاكَّة[1] وجهها ، ومنهم الناشرة شعرها ، ومنهم الداعية بويلها ، فيقول ملك الموت عليه السلام : ففيم هذا الجزع ؟ فوالله ما أنقصت لأحد منكم عمراً ، ولا ذهبت لأحد منكم برزق ، ولا ظلمت أحداً منكم شيئاً ، فإن كانت شكايتكم وسخطكم على فإني والله مأمور ، وإن كان ذلك على ميتكم فإنه فى ذلك مقهور ، وإن كان ذلك على ربكم فأنتم به كفرة وإن لى فيكم عودة ثم عودة ، فلو أنهم يرون مكانه أو يسمعون كلامه لذهلوا عن ميتهم ولبكوا على أنفسهم[2] .

وفى الخـبر :

(إذا حمل الميت على النعش رفرفت روحه فوق النعش ، وهو ينادى : ياأهلى ، وياولدى : لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بى ، جمعت المال من حله ومن غير حله ، ثم خلفته لغيرى يهنأ به ، والتبعة على ، فاحذروا ما حل بى) أ . هـ .

وروى جعفر بن محمد عن أبيه قال :

نظر رسول الله ﷺ إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار ، فقال له النبى ﷺ :

« ارفق بصاحبى فإنه مؤمن ؛ فقال ملك الموت عليه السلام : يامحمد طب نفساً ، وقر عيناً ، فإنى بكل مؤمن رفيق ،واعلم أن ما من أهل بيت

---

(١) الصاكَّة : اللاطمة . وفى القرآن الكريم ﴿ فصكت وجهها ﴾ .

(٢) أخرجه أبو مطيع فى اللؤلؤيّات .

مدر ، ولا شعر ، فى بر ولا بحر إلا وأنا أتصفحهم فى كل يوم خمس مرات حتى لأنا أعرف بصغيرهم وكبيرهم منهم لأنفسهم .. والله يا محمد لو أنى أردت أن أقبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو الآمر بقبضها » أ. هـ .

قال الكلبى :

يقبض ملك الموت الروح من الجسد ، ثم يسلمها إلى ملائكة الرحمة ، إن كان مؤمناً ، وإلى ملائكة العذاب إن كان كافراً .

وفى خبر الإسراء :

عن ابن عباس ، عن النبى ﷺ قال : « **مررت على ملك آخر جالس على كرسى ، إذا جميع الدنيا ومن فيها بين ركبتيه ، وبيده لوح مكتوب ينظر فيه ، لا يلتفت عنه يميناً ولا شمالاً . فقلت : يا جبريل من هذا ؟ . قال : هذا ملك الموت . فقلت : ياملك الموت ، كيف تقدر على قبض جميع أرواح من فى الأرض برها وبحرها ؟ . قال : ألا ترى أن الدنيا كلها بين ركبتى ، وجميع الخلائق بين عينى ، ويداى تبلغان المشرق والمغرب ، فإذا نفد أجلُ عبدٍ نظرت إليه ، فإذا نظرت إليه عرف أعوانى من الملائكة أنه مقبوض ، فغدَوا فبطشوا به يعالجون نزع روحه ، فإذا بلغوا بالروح الحلقوم ، علمت ذلك فلم يخف على شىء من أمره ، ومددت يدى فأنزعه من جسده وأتولى قبضه** » .

* * *

◉ مصير الروح بعد قبضها

* فى حديث البراء بن عازب الذى سيأتى ، أن الروح تصعد إلى السماء ، وهو صحيح ، وقد ذكر القرطبى طرائف نرى ذكر بعضها :

● (روى عن يحيى بن أكثم ، وقد رئى فى المنام بعد موته فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : أوقفنى بين يديه . ثم قال : **يا شيخ السوء فعلت كذا وفعلت كذا ؟!** فقلت : يارب ما بهذا حدثت عنك . **قال : فيم حدثت عنى يا يحيى ؟** فقلت : حدثنى الزهرى عن معمر بن عروة عن عائشة عن النبى ﷺ عن جبريل عنك سبحانك أنك قلت : **إنى لأستحى أن أعذب ذا شيبة شابت على الإسلام ، فقال: يا يحيى صدقت ، وصدق الزهرى ، وصدق معمر ، وصدقت عائشة ، وصدق محمد ، وصدق جبريل ، وقد غفرت لك)** أ . هـ .

● (وعن منصور بن عمار أنه رئى فى المنام فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : أوقفنى بين يديه وقال له : **بماذا جئتنى يا منصور ؟** قلت : بست وثلاثين حجة . قال : **ما قبلت منها شيئاً ولا واحدة** . ثم قال : **بماذا جئتنى يا منصور ؟** قلت : جئتك بثلاثمائة وستين ختمة للقرآن . قال : **ما قبلت منها واحدة.** ثم قال: **بماذا جئتنى يا منصور؟** قلت: جئتك بك: قال سبحانه: **الآن جئتنى اذهب فقد غفرت لك** . ومن الناس من إذا انتهى إلى الكرسى سمع النداء: **ردوه**. فمنهم من يرد من الحجب ، وإنما يصل إلى الله عارفوه) أ . هـ .

* ذلك أن أهل الجنة سيدخلونها برحمة الله وليس بأعمالهم لأن نعم الله لا يساويها أعمال فمهما عظمت هذه الأعمال ، فنعمة العقل وحدها لا يستطيع الإنسان أن يؤدى شكرها لو وُلِدَ ساجداً على الجمر إلى أن يتوفاه الله ، فاللهم إنا نسألك أن تدخلنا الجنة برحمتك .

● (وعن ابن نباته وقد رئى فى المنام فقيل له : ما فعل الله بك ؟ . فقال : أوقفنى بين الكريمتين وقال : **أنت تخلص كلامك حتى يقال : ما أفصحه !** . فقلت : سبحانك إنى كنت أصفك . قال : **قل : ما كنت تقول فى دار الدنيا ؟** قلت : أبادهم الذى خلقهم ، وأسكنهم الذى أنطقهم ، وسيوجدهم كما أعدمهم ، وسيجمعهم كما فرقهم . قال لى : **صدقت . اذهب فإنى قد غفرت لك**) أ . هـ .

◉ تلاقى الأرواح فى السّماء

* قال ابن المبارك عن أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه :

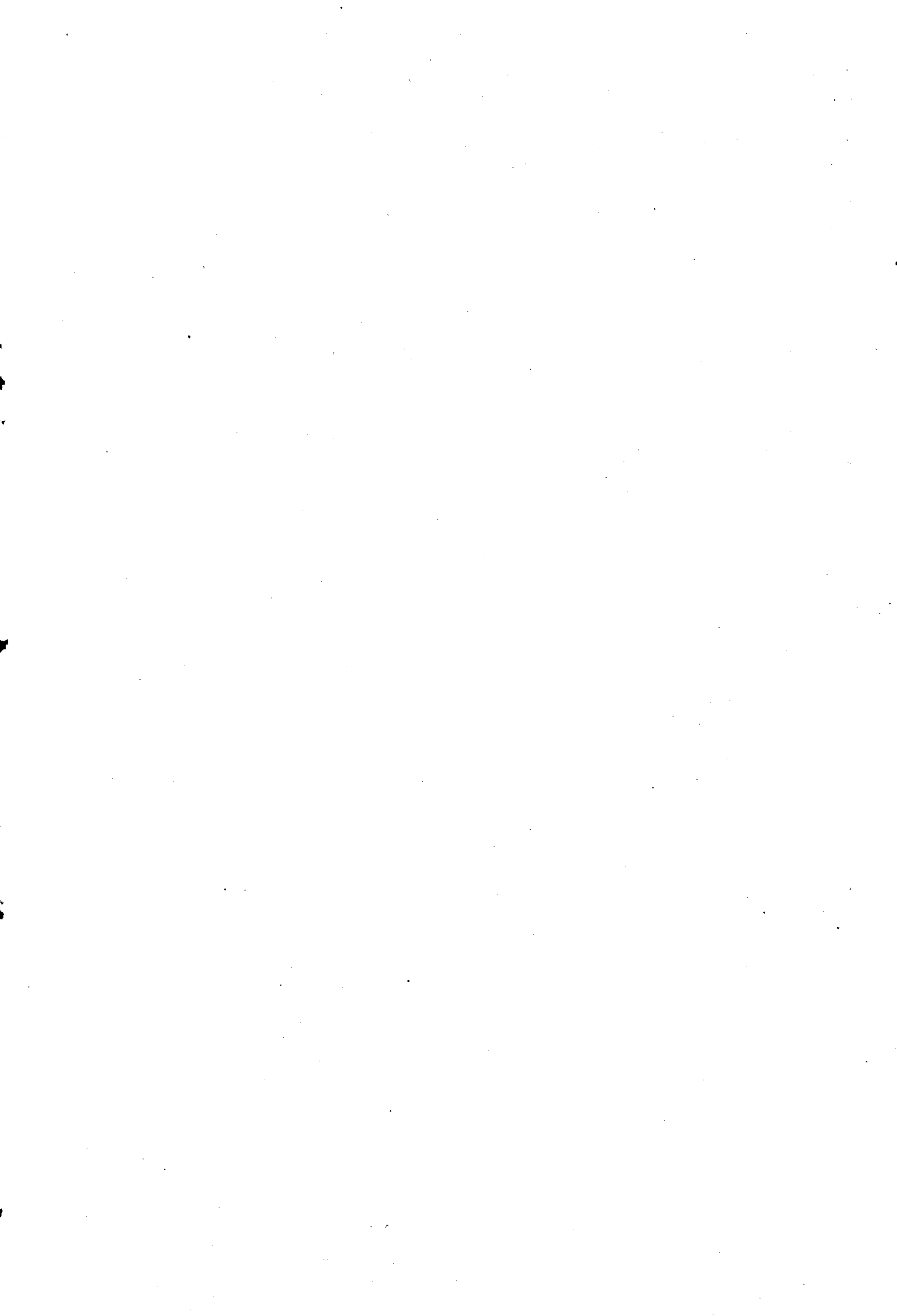
« إذا قبضت نفس المؤمن تلقاها أهل الرحمة من عباد الله تعالى كما يتلقون البشير فى الدنيا ، فيقبلون عليه فيسألونه فيقول بعضهم لبعض : أنظروا أخاكم حتى يستريح ، فإنه كان فى كرب شديد . قال : فيقبلون عليه فيسألونه : ما فعل فلان ؟ . ما فعلت فلانة ؟ . هل تزوجت ؟ . فإذا سألوه عن الرجل قد مات قبله فيقول : إنه هلك . فيقولون : إنا لله وإنا إليه راجعون . ذهب إلى أمه الهاوية فبئست الأم وبئست المربية . قال : فتعرض عليهم أعماله ، فإن رأوا حسناً فرحوا واستبشروا وقالوا : اللهم هذه نعمتك على عبدك فأتمها . وإن رأوا شراً قالوا : اللهم راجع بعبدك » .

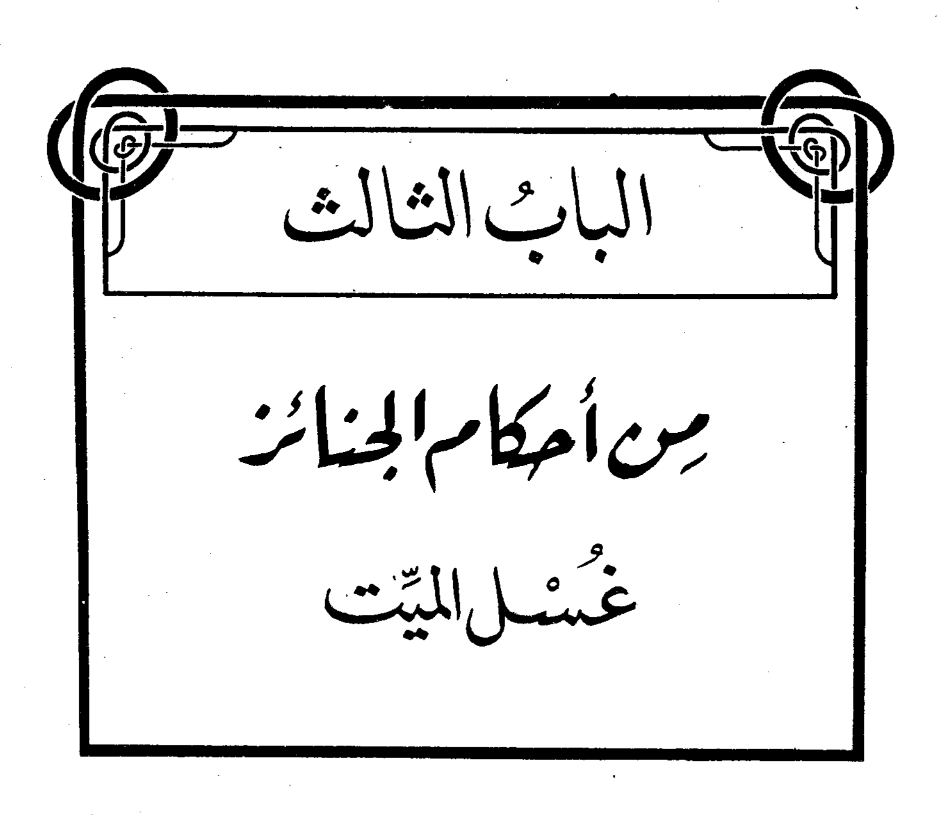
* وكان أبو الدرداء يقول : إن أعمالكم تعرض على موتاكم فيسرون ويساءون قال : يقول أبو الدرداء : اللهم إنى أعوذ بك أن أعمل عملاً يخزى به عبد الله بن رواحة .

* وقد قيل فى قوله ﷺ : « **الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف** » إنه هذا التلاقى ، وقد قيل : تلاقى أرواح النيام والموتى والله أعلم[1] .

---

(١) التذكرة للقرطبى ، بتصرف (٧٧/١) .

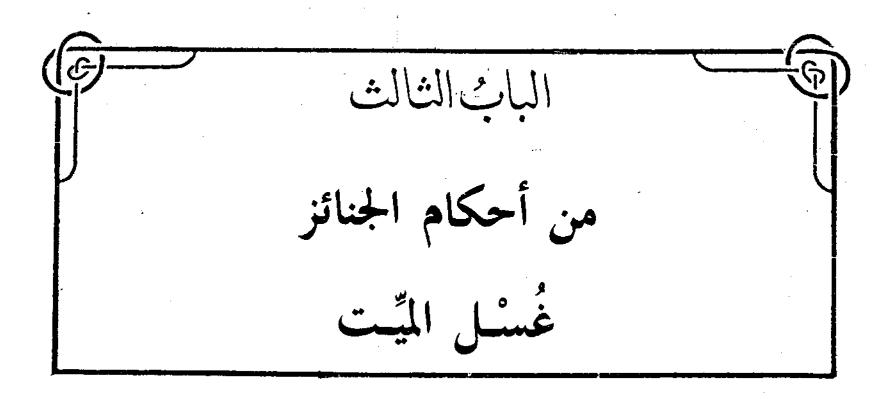




البابُ الثالث

مِن أحكام الجنائز

غُسْل الميِّت



الباب الثالث

من أحكام الجنائز

غُسْل الميِّت

يرى جمهور العلماء أن غسل الميت المسلم فرض كفاية ، واختلفوا فى غسل بعض الميت المسلم .

فذهب الإمام الشافعى وأحمد وابن حزم إلى أنه يُغَسَّل ، ويُكَفَّن ويُصلَّى عليه .

وقال أبو حنيفة : إن وجد أكثر من نصفه غسل وصلى عليه : وإلا فلا غسل ولا صلاة .

والأحاديث فى ذلك كثيرة منها :

عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ :

« **من غسل ميتاً فأدى فيه الأمانة ولم يفش عليه ما يكون منه عند ذلك ، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، وقال: لِيَلِهِ أقربكم إن كان يعلم ، فإن لم يكن يعلم ، فمن ترون عنده حظاً من ورع وأمانة** » أ. هـ[1] .

وعن عائشة قالت : إن رسول الله ﷺ قال :

« **كسر عظم الميت مثل كسر عظمه حياً** » أ. هـ[2] .

أما قوله « **لِيَلِهِ أقربُكم** » فيه أن الأحق بغسل الميت من الناس الأقرب إلى

---

(١) رواه الإمام أحمد والطبرانى فى الأوسط . ويَلِه : أى يتولَّى أمر غُسله ، واللام لام الأمر .
(٢) رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه .

الميتِ بشَرط أن يكون عالماً بما يحتاج إليه من العلم ، وقد قال بتقديم القريب على غيره الإمام يحيى .

وقوله : « **فمن ترون عنده حظاً من ورع وأمانة** » فيه دليل لما ذهبت إليه الهادوية من اشتراط العدالة فى الغاسل ، ولكن الجمهور خالفهم فى ذلك لأنهم قالوا : إن الغاسل مكلف بالتكاليف الشرعية وغسل الميت من جملتها ، وإلا لزم عدم صحة كل تكليف منه ، وهو خلاف الإجماع ، واستندوا إلى أدلة لا قبل لنا بسردها الآن ، ولكن مما لا شك فيه أنه إذا توافر الغاسل العادل ، فهو أفضل بكثير .. والله تعالى أعلم .

غسل أحد الزوجين للآخر :

عن عائشة قالت : رجع إلَيَّ رسول الله ﷺ من جنازة بالبقيع وأنا أجد صداعاً فى رأسى أقول : وارأساه ، فقال : « **بل أنا وارأساه ، ما ضرك لو مت قبلى فغسلتك وكفنتك ثم صليت عليك ودفنتك** »[1] أ . هـ .

والحديث فيه دليل على أن المرأة يغسلها زوجها إذا ماتت ، وهى تغسله قياساً ، واستدلوا أيضاً بغسل أسماء لأبى بكر ، وعلى لفاطمة كما أخرجه الشافعى والدارقطنى وأبو نعيم والبيهقى بإسناد حسن ، ولم يقع من سائر الصحابة إنكار على أسماء وَعلىٍّ فكان إجماعاً ، وقد ذهب إلى ذلك الشافعية والأوزاعى وإسحاق والجمهور .

غسل الشهيد .. وماذا لو كان جنباً ؟

عن جابر قال : كان رسول الله ﷺ يجمع بين الرجلين من قتلى أُحد فى الثوب الواحد ثم يقول : **أيهم أكثر أخذاً للقرآن ؟** فإذا أشير له إلى أحدهما قدمه فى اللحد ، وأمر بدفنهم فى دمائهم ، ولم يغسلوا ولم يصل عليهم[2] أ . هـ .

والحديث فيه دليل على أن الشهيد الذى قتل فى المعركة بأيدى الكفار لا يغسل ولا يصلى عليه .

---

(١) رواه الإمام أحمد وابن ماجه والدارمى وابن حبان والدارقطنى

(٢) أخرجه البخارى والنسائى وابن ماجه والترمذى وصححه .

وروى محمد بن إسحاق فى المغازى بإسناده ، عن عاصم بن عمر بن قتادة ، عن محمود بن لبيد ، أن النبى ﷺ قال : « **إنَّ صاحبكم لتغسله الملائكة ــ يعنى حنظلة ــ فسلوا صاحبته: ما شأنه ؟ فسئلت صاحبته فقالت : خرج وهو جنب حين سمع الهائعة**[1] . **فقال رسول الله ﷺ : لذلك غسلته الملائكة** » أ. هـ[2] .

قال العلامة الشوكانى : (وقد استدل بالحديث من قال إنه يغسل الشهيد إن كان جنباً ، وبه قال أبو حنيفة والمنصور بالله . وقال الشافعى ومالك وأبو يوسف ومحمد ، وإليه ذهب الهادى والقاسم والمؤيد وأبو طالب : أنه لا يغسل لعموم الدليل وهو الحق ، لأنه لو كان واجباً علينا ما اكتفى فيه بغسل الملائكة ، وفعلهم ليس من تكليفنا ، ولا أمرنا بالاقتداء بهم) أ. هـ[3] .

قال الشيخ السيد سابق فى فقه السنة :

(الشهيد الذى قتل بأيدى الكفرة فى المعركة ، لا يغسل ولو كان جنباً ، ويكفن فى ثيابه الصالحة للكفن ، ويكمل ما نقص منها ، وينقص ما زاد على كفن السنة ، ويدفن فى دمائه ، ولا يغسل شئ منها) أ. هـ[4] .

صفــة الغســل :

عن أم عطية قالت : « دخل علينا رسول الله ﷺ حين توفيت ابنته ، قال : «**اغْسِلْنَها ثلاثاً أو خمساً أو أكثر من ذلك إن رأيتن بماء وسِدْر ، واجعلن فى الأخيرة كافوراً ، فإذا أفرغتن فآذننى . فلما فرغنا آذناه ، فأعطانا حقوه ، فقال : أشعرنها إياه ــ يعنى إزاره ــ** » أ. هـ[5] . وفى لفظ : « **اغسلنها وتراً ثلاثاً أو خمساً أو سبعاً أو أكثر من ذلك إن رأيتن** » وفيه قالت : (فضفرنا شعرها ثلاثة قرون فألقيناها خلفها) أ. هـ .

---

(١) الهائعة : الصوت الشديد .

(٢) قال ابن حجر فى الفتح : قصة مشهورة رواها ابن إسحاق وغيره . أ. هـ. كذلك رواه ابن حبان والحاكم والبيهقى عن ابن الزبير .

(٣) نيل الأوطار (٥/٢٤) .

(٤) (١/٤٣١) .

(٥) الحديث واللفظ متفق عليهما .

قوله : (فآذننى) أى أعلمننى . وقوله : (فأعطانا حِقْوه) قال بفتح المهملة ويجوز كسرها ، والمراد هنا الإزار . والحقو فى الأصل : معقد الإزار . وأطلق هنا على الإزار مجازاً . وقوله : (أشعرنها إياه) أى الففنها فيه ، لأن الشعار ما يلى الجسد من الثياب ، والمراد اجعلنه شعاراً لها . قال فى الفتح : قيل الحكمة فى تأخير الإزار معه إلى أن يفرغن من الغسل ، ولم يناولهن إياه أولاً ليكون قريب العهد من جسده حتى لا يكون بين انتقاله من جسده فاصل ، وهو أصل فى التبرك بآثار الصالحين . وفيه جواز تكفين المرأة فى ثوب الرجل ، وقد نقل ابن بكال الاتفاق فى ذلك .

إذن فغسل الميت يكون بتعميم بدنه بالماء مرة واحدة ، ولو كان جنباً أو حائضاً ، ويستحب وضعه فى مكان مرتفع ، ويجرد من الثياب ، ويوضع عليه ساتر يستر عورته مالم يكن صبياً ، ولا يحضر عند الغسل إلا من تدعو الحاجة إلى حضوره ، وينبغى أن يكون الغاسل ثقة أميناً صالحاً . وتجب النية عليه ، ثم يبدأ فيعصر بطن الميت عصراً رفيقاً ، لإخراج ما عسى أن يكون بها ، ويزيل ما على بدنه من نجاسة . على أن يلف على يده خرقة يمسح بها عورته ، فإن لمس العورة حرام . ثم يوضئه وضوء الصلاة ، ثم يغسله ثلاثاً بالماء والصابون أو الماء القراح[1] مبتدئاً باليمين ، فإن رأى الزيادة على الثلاث بعدم حصول الإنقاء بها أو لشىء آخر غَسَّله خمساً أو سبعاً .

وإن كان الميت امرأة ندب نقض شعرها وغسل وأعيد تضفيره وأرسل خلفها ، فإذا فرغ من غسل الميت جفف بدنه بثوب نظيف ، لئلا تبتل أكفانه ، ووضع عليه الطيب .

التيمم للميت :

عند فقد الماء والعجز عنه ييمم الميت ، وكذلك لو كان الجسم بحيث لو غسل لتهرى .

وكذلك المرأة تموت بين الرجال الأجانب عنها ، والرجل يموت بين النساء

(١) القراح : المطلق .

الأجنبيات عنه للحديث : أن النبى ﷺ قال : « **إذا ماتت المرأة مع الرجال ، ليس معهم امرأة غيرها ، والرجل مع النساء ليس معهن رجل غيره ، فإنهما ييممان ، ويدفنان ، وهما بمنزلة من لم يجد الماء** »[1] أ. هـ .

(وييمم المرأة ذو رحم محرم منها بيده ، فإن لم يوجد ؛ يممها أجنبى بخرقة يلفها على يده)[2] .

غسل المرأة للصبى :

أجمع أهل العلم على أن المرأة تغسل الصبى الصغير .

مسـائـل فـى الغسـل :

١ ــ هل يجوز للمرأة الكتابية أن تغسل زوجها المسلم ؟ . وهل يجوز له أن يغسلها ؟

● يجوز لها أن تغسله وهو مذهب المالكية ، وقالت الحنفية والحنابلة : لا يجوز لها ، لأن الغسل يحتاج إلى نية ، ونية الكافر لا تصح ، ولا يجوز له أيضاً أن يغسلها إذا ماتت بناء على أنه لا يجوز للمسلم أن يتولى عملاً يكون فيه تكريم الكافر وتطهيره وتعظيمه مستدلين بالآية :

﴿ يـٰأيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم ﴾[3] .

٢ ــ هل يغسل الغريق أم يكتفى بما أصابه من الماء ؟

● لابد من تغسيل الغريق بعد إخراجه من الماء ، لأن غسله قد وجب على الحى ، ولا يقاس على الجنب ، فإن الجنب حين نزل إلى الماء قد نوى الاغتسال من جنابته ، والغسل من الجنابة واجب عليه لا على غيره فتدبر .

٣ ــ هل يتأذى الميت مما يتأذى به الحى ؟

● سبق أن أوضحنا ذلك ، وعلى هذا يجب الرفق به حال غسله وتكفينه

(١) أخرجه أبو داود فى مراسيله ، والبيهقى عن مكحول .
(٢) فقه السنة (١/٤٣٤) .
(٣) سورة الممتحنة ، آية : ١٣

وحمله ودفنه ، وعدم الرفق به إهانة ، لأنه يجب تكريم المؤمن حياً وميتاً .

٤ ــ هل يعاد الغسل إذا خرج من بطن الميت شيء بعد غسله ؟ .

● لا يجب إعادة الغسل ، ولكن ينبغى تطهير المحل من النجاسة قبل وضع الكفن .

٥ ــ هل يجوز الإخبار بشيء رآه الغاسل وقت تغسيله ؟ .

● أوضحت الأحاديث التى سردناها أنه لا يجوز إفشاء أسرار الميت ، وأن الغاسل ينبغى أن يكون أميناً عادلاً .

٦ ــ هل يجوز للجنب والحائض تغسيل الميت ؟ .

● يجوز للجنب والحائض تغسيل الميت لأنهما طاهران ، لأن المؤمن لا ينجس كما فى الحديث الصحيح .

٧ ــ هل يجب على المسلمين تغسيل الكافر وتكفينه ودفنه كالمسلم ؟ .

● لا يجب عليهم فيه ذلك ، لأن غسل الميت وتكفينه والصلاة عليه لا تجب إلا على من حضره من المسلمين إذا كان مسلماً .

٨ ــ هل يأخذ الشهداء الذين قتلوا أو توفوا فى أرض غير أرض القتال حكم شهداء المعارك ؟ .

● لا يأخذون حكمهم ، بل يغسلون ويصلى عليهم ، فقد غسل رسول الله ﷺ من مات منهم فى حياته ، وغسل المسلمون عمر وعثمان وعلياً وكلهم شهداء ..

◉ تكفينــــه

تكفين الميت فرض كفاية على من حضره من المسلمين . ويكون التكفين بعد الغسل مباشرة ، ويكفنه أقرب الناس إليه . كما تقدم . ويكون من ماله بعد سداد دينه ، فإن لم يكن له مال فكفنه على من تلزمه نفقته ، فإن لم يكن للولى

المنفق مال فكفنه من بيت مال المسلمين . فإن لم يكن لهم بيت مال ، فكفنه على من حضره من المسلمين .

واختلف الفقهاء فى كفن الزوجة ، هل يكون من مالها أو من مال زوجها ؟ فقال جماعة من المالكية والحنابلة والشافعية : كفنها يكون من مالها لا من مال زوجها ، لأن الزوجية قد انقطعت بالموت ، وقال جماعة من الحنفية والشافعية والمالكية : كفنها يكون من مال زوجها إن كان له مال ، فإن لم يكن له مال فكفنها من مالها ، لأن الزوجية لا تزال باقية ولو حكماً . وهو الأصح الذى عليه الفتوى ، والله أعلم .

والحكمة من تكفين الميت ستره عن الأعين وتكريمه ، وقد وجب ستره وتكريمه حياً ، كذلك ستره وتكريمه ميتاً[1] .

أنـــواع الكفـــن :

١ ـــ كفـــن الضـــرورة :

وهو ثوب ساتر لجميع البدن بحيث لا يشف عما تحته .

فعن خباب بن الأرت : « أن مصعب بن عمير قُتل يوم أُحد ولم يملك إلا نمرة ، فكنا إذا غطينا رأسه بدت رجلاه ، وإذا غطينا رجليه بدا رأسه . فأمرنا رسول الله ﷺ أن نغطى بها رأسه ونجعل على رجليه شيئاً من الإذخر »[2] أ . هـ .

قوله : (إلا نمرة) وهى شملة فيها خطوط بيض وسود أو بردة من صوف يلبسها الأعراب .. كذا فى القاموس .

وقوله : (ونجعل على رجليه شيئاً من الإذخر) فيه أنه يستحب إذا لم يوجد ساتر أَلْبَتَّةَ لبعض البدن أو لكله أن يغطى بالإذخر ، فإن لم يوجد فما تيسر من نبات الأرض لبيوتنا وقبورنا ، والإذخر : نبات طيب الرائحة بأرض الحجاز

---

(١) الفقه الواضح للدكتور محمد بكر إسماعيل (٦٢/٤) .
(٢) رواه الجماعة إلا البخارى .

وعن خباب أيضاً : « أن حمزة لم يوجد له كفن إلا بُرْدَة ملحاء إذا جعلت على قدميه قلصت عن رأسه حتى مدت على رأسه وجعل على قدميه الإذخر »[1] أ. هـ .

٢ ـ كفن الكفاية :

وهو ثوبان ساتران لجميع البدن لا يشفان عما تحتهما . إزار ولفافة كل منهما ينبغى أن يكون ساتراً لجميع البدن . والاقتصار عليهما جائز بلا كراهة .

٣ ـ كفن السُّنَّة :

وهو ثلاثة أثواب للذكر البالغ والذى دون البلوغ بقليل ـ عند الأحناف وكثير من الفقهاء على اختلاف مذاهبهم ـ قميص ، وإزار ، ولفافة . فالقميص من العنق إلى القدم بلا كُمَّين ، ولا فتحة صدر ، ولا جنب ، ولا يوسع من أسفل كقميص الحى وإنما يكون متساوياً .

والإزار أيضاً يجب أن يغطى البدن كله ، ثم يؤتى باللفافة فيلف بها الجسد من الرأس إلى القدم ، فيكون قد ستر بثلاثة أثواب وهو الكفن المسنون للأحاديث .

عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كفن فى ثلاثة أثواب : قميصه الذى مات فيه ، وحلة نجرانية ، الحلة (ثوبان) أ. هـ[2] .

عن عائشة قالت : « كفن رسول الله ﷺ فى ثلاثة أثواب بيض : سحولية جدد يمانية ، ليس فيها قميص ولا عمامة أدرج فيها إدراجاً » أ. هـ[3] . وفى رواية : « وأما الحلة فإنما شبه على الناس فيها إنما اشتريت ليكفن فيها فتركت الحلة وكفن فى ثلاثة أثواب بيض سحولية » أ. هـ . وسحولية : بضم المهملتين ، نسبة إلى سحول : قرية باليمن .

---

(١) رواه أحمد والحاكم عن أنس

(٢) رواه أحمد وأبو داود .

(٣) رواه الجماعة ، والرواية لهم إلا أحمد والبخارى .

وعن ليلى بنت قانف الثقفية قالت : « كنت فيمن غسل أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ عند وفاتها ، وكان أول ما أعطانا رسول الله ﷺ الحِقَا ثم الدرع ثم الخمار ثم الملحفة ثم أدرجت بعد ذلك فى الثوب الآخر ، قالت ورسول الله ﷺ عند الباب معه كفنها ، يناولنا ثوباً ثوباً » أ. هـ[1] .

قال البخارى : قال الحسن : « الخرقة الخامسة يشد بها الفخذان والوركان تحت الدرع » أ. هـ .

قوله : (الحقا) بكسر المهملة وتخفيف القاف مقصور ، قيل هما لغة فى الحقو ، وهو الإزار .

قال الشوكانى : (والحديث يدل على أن المشروع فى كفن المرأة أن يكون إزاراً أو درعاً وخماراً وملحفة ودرجاً ، ولم يقع تسمية أم عطية فى الحديث فيمن حضر) أ. هـ[2] .

قال فى الفقه الواضح :

(وكره بعض الفقهاء الزيادة على ثلاثة أثواب وعدوه من السرف ، وأجاز بعضهم الزيادة إلى خمسة : قميص ، وعمامة ، وثلاثة أثواب ، والأمر عندى فى ذلك واسع غير أن الاختصار على الثلاثة أولى لأنه الموافق لكفن النبى ﷺ) أ. هـ[3] .

ما يستحب فى الكفن :

١ ــ يستحب كونه أبيض للحديث :

● عن ابن عباس أن النبى ﷺ قال :

« البسوا من ثيابكم البياض ، فإنها من خير ثيابكم . وكفنوا فيها موتاكم » أ. هـ[4] .

---

(١) رواه أحمد وأبو داود ، وفى إسناده ابن إسحاق ، ولكنه صرح بالتحديث ، وفيه غيره ، وثقه ابن حبان .
(٢) (٥/٣٦) .
(٣) (٥/٦٤) .
(٤) رواه الخمسة إلا النسائى وصححه الترمذى .

٢ ـــ ويستحب تحسين الكفن ، بحيث يكون نظيفاً (ويستحب تطييبه وأن يكون ساتراً لجميع أجزاء البدن ، غير محرم (كالحرير) واستعماله دون مغالاة وذلك للحديث :

● عن أبى قتادة قال : قال رسول الله ﷺ :

« **إذا ولى أحدكم أخاه فليحسن كفنه** » أ. هـ[١] .

مســـألتان :

١ ـــ تكفين المحرم :

● عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « **إذا أجمرتم الميت ، فأجمروه ثلاثاً** » أ. هـ[٢] .

● وعن ابن عباس قال : بينما رجل واقف مع رسول الله ﷺ بعرفة إذ وقع عن راحلته فوقصته ، فذكر ذلك للنبى ﷺ فقال :

« **اغسلوه بماء وسدر، وكفنوه فى ثوبيه ، ولا تحنطوه ، ولا تخمروا رأسه ، فإن الله تعالى يبعثه يوم القيامة ملبياً** » أ. هـ[٣] .

قال فى فقه السنة : (وذهبت الحنفية والمالكية إلى أن المحرم إذا مات انقطع إحرامه ، وبانقطاع إحرامه يكفن كالْمُحِلِّ ، فيخاط كفنه، ويغطى رأسه ، ويطيب ، وقالوا : إن قصة هذا الرجل واقعة عين لا عموم لها فتختص به ، ولكن التعليل بأنه يبعث يوم القيامة ملبياً ظاهر أن هذا عام فى كل مُحْرِمٍ ، والأصل أن ما ثبت لأحد الأفراد من الأحكام يثبت لغيره مالم يَقُمْ دليلٌ على التخصيص) أ. هـ[٤] .

ويؤيد ذلك ما قاله ابن المنذر ونقله الشوكانى :

---

(١) رواه ابن ماجه والترمذى وحسنه ورجال إسناده ثقات .

(٢) رواه أحمد والبزار والبيهقى ، ورجاله رجال الصحيح .

(٣) رواه الجماعة ، كذلك أخرجه النسائى بلفظ آخر .

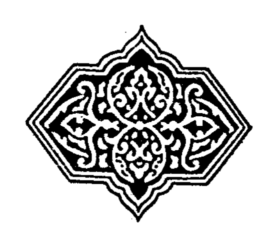
(٤) (٤٣٦/١ ـ ٤٣٧) .

(وفى الحديث إباحة غسل المحرم بالسدر خلافاً لمن كرهه ، وأن الوتر فى الكفن ليس بشرط ، وأن الكفن من رأس المال لأمره ﷺ بتكفينه فى ثوبيه ، ولم يستفصل : هل عليه دين مستغرق أم لا ؟ . وفيه لا يكفن فى المحنط كما تقدم ، وأنه يجوز التكفين فى الثياب الملبوسة ، وأن الإحرام يتعلق بالرأس) أ . هـ[1]

٢ ـ هل التكفين فى الثوب الجديد أفضل أو فى القديم ؟

● عن عائشة قالت : « إن أبا بكر نظر إلى ثوب عليه ـ كان يمرض فيه ـ درع من زعفران . فقال : اغسلوا ثوبى هذا ، وزيدوا عليه ثوبين فكفنونى فيها . قلت : إن هذا خلق ؟ . قال : إن الحى أحق بالجديد من الميت إنما هو للمهلة » أ . هـ[2] .

ورأيى أنه إذا كان للميت مال كثير ، ولم يكن هناك من يحتاج لثمن الكفن الجديد ، ولم يوص بأن يكفّن فى ثيابه القديمة ، فالأولى تكفينه فى ثياب جديدة ، وإن كان هناك من يحتاج لثمن الكفن الجديد فالأولى تكفينه فى ثيابه القديمة بعد تنظيفها وتطييبها . أما حديث عائشة ففيه اختلاف كثير لا قبل لنا به الآن ، والله أعلم .



(١) نيل الأوطار (٥/٤٠) .
(٢) أخرجه البخارى مختصراً

◉ الصّلاة على الميِّت

حكمهـــا :

الصلاة على الميت فرض كفاية على من حضره من المسلمين .

فضلهـــا :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« **من شهد الجنازة حتى يصلى عليها فله قيراط ، ومن شهدها حتى تدفن فله قيراطان . قيل : وما القيراطان ؟ . قال : مثل الجبلين العظيمين** » أ . هـ[1] .

وعن مالك بن هبيرة قال : قال رسول الله ﷺ :

« **ما من مؤمن يموت فيصلى عليه أمة من المسلمين ، يبلغون أن يكونوا ثلاثة صفوف إلا غفر له** » .

فكان مالك بن هبيرة يتحرى إذا قل أهل الجنازة أن يجعلهم ثلاثة صفوف . أ . هـ[2] .

وعن عائشة ، عن النبى ﷺ :

« **ما من ميت يصلى عليه أمة من المسلمين يبلغون مائة كلهم يشفعون له إلا شفعوا فيه** » أ . هـ[3] .

شـروطهـــا :

يشترط لها ما يشترط للصلاة من تحصيل الطهارة ، واستقبال القبلة ، وستر

---

(١) متفق عليه ، وهو عند أحمد عن أبى سعيد ، وعن أبى مسعود عند أبى عوانة . قال الحافظ : وأسانيده هذه صحاح .

(٢) رواه الخمسة إلا النسائى .

(٣) رواه أحمد ومسلم والترمذى وصححه .

العورة ، والخلو من دم الحيض والنفاس ، إلا أنه لا يُشترط فيها دخول الوقت ، بل تؤدى فى جميع الأوقات ، إلا أن الإمام أحمد وابن المبارك وإسحاق كرهوا الصلاة على الجنازة وقت الطلوع والاستواء والغروب إلا إن خيف عليها التغير .

أركانها :

١ ـ النيـة .

٢ ـ القيام للقادر عليه ، وهو ركن عند الجمهور .

٣ ـ التكبيرات الأربع ، والسنة عدم رفع اليدين فى صلاة الجنازة إلا فى أول تكبيرة فقط .

٤ ـ قراءة الفاتحة سراً .

٥ ـ الصلاة على الرسول ﷺ بأى صيغة : (ولو قال : اللهم صل على محمد لكفى)[1] . لكن المأثور أفضل مثل : (اللهم صَلِّ على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد) .

ويؤتى بها بعد التكبيرة الثانية كما هو الظاهر ، وإن لم يرد ما يدل على تعيين موضعها .

٦ ـ الدعاء .. وهو ركن باتفاق العلماء ، ويتحقق بأى دعاء ، ولكن يستحب أن يدعو بأية دعوة من الدعوات المأثورة ، ومنها :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كان النبى ﷺ إذا صلى على جنازة قال :

« اللهم اغفر لحينا وميتنا ، وشاهدنا وغائبنا ، وصغيرنا وكبيرنا ، وذكرنا وأنثانا ، اللهم من أحييته منا فأحيه على الإسلام ، ومن توفيته منا فتوفه على الإيمان » أ . هـ[2] .

---

(١) فقه السنة (١/٤٤٠) .

(٢) رواه أحمد والترمذى ، ورواه أبو داود وابن ماجه وزاد فيه ، كذا أخرجه النسائى وابن حبان والحاكم وله شاهد صحيح نحوه .

وعن عوف بن مالك قال : سمعت النبى ﷺ وهو يصلى على جنازة يقول :

« اللهم اغفر له وارحمه ، واعف عنه وعافه وأكرم نزله ، ووسع مدخله ، واغسله بماء وثلج وبرد ، ونقه من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس ، وأبدله داراً خيراً من داره وأهلاً خيراً من أهله ، وزوجاً خيراً من زوجه ، وقه فتنة القبر ، وعذاب النار » .

قال عوف : تمنيت لو كنت أنا الميت لدعاء رسول الله ﷺ لذلك الميت . أ . هـ[1] .

وعن واثلة بن الأسقع قال : صلى بنا رسول الله ﷺ على رجل من المسلمين فسمعته يقول :

« اللهم إن فلاناً ابن فلان فى ذمتك وحَلَّ جوارك ، فقه فتنة القبر وعذاب النار أنت أهل الوفاء والحمد ، اللهم فاغفر له وارحمه ، إنك أنت الغفور الرحيم » أ . هـ[2] .

تنبيهـــات :

١ ـــ يدعو المصلى بأى صيغة من الصيغ المتقدمة .

٢ ـــ إن كان الميت امرأة فلا يقل : (أبدلها زوجاً خيراً من زوجها) لجواز أن تكون لزوجها فى الجنة ، فإن المرأة لا يمكن الشركة فيها بخلاف الرجل .

٣ ـــ إن كان الميت غير مكلف كالصبى . فلا يستغفر له . بل يدعو لأبويه ولأموات المسلمين ، ويستحب أن يدعو بقوله : **« اللهم اجعله لنا سلفاً وفرطاً وأجراً »** .

٤ ـــ الدعاء بعد التكبيرة الرابعة .

(١) رواه مسلم والنسائى ، وكذا أخرجه الترمذى مختصراً .

(٢) رواه أحمد وأبو داود وأخرجه ابن ماجه ، والحديث سكت عنه أبو داود والمنذرى وفيه مروان ابن جناح وفيه مقال .

قال الشافعي : يقول بعدها : (اللهم لا تحرمنا أجره ، ولا تَفْتِنَّا بعده)
وقال ابن أبى هريرة : كان المتقدمون يقولون بعد الرابعة : (اللهم ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) .

٥ ـــ السلام ، وهو متفق على فرضيته بين الفقهاء ما عدا أبا حنيفة .

ملخص للصلاة على الجنازة :

يقف المصلى بعد استكمال شروط الصلاة ناوياً بقلبه الصلاة على من حضر من أموات المسلمين ، رافعاً يديه لتكبيرة الإحرام ، ثم يضع يده اليمنى على اليسرى ، ويشرع فى قراءة الفاتحة ، ثم يكبر الثانية ويصلى على النبى ﷺ ثم يكبر الثالثة ويدعو للميت ، ثم يكبر الرابعة ويدعو ثم يسلم بعد الدعاء .

موقف الإمام من الرجل والمرأة :

من السنة أن يقوم الإمام حذاء رأس الرجل . ووسط المرأة لحديث أنس : أنه صلى على جنازة رجل ، فقام عند رأسه ، فلما رفعت ، أتى بجنازة امرأة ، فصلى عليها فقام عند وسطها ، فسئل عن ذلك ، وقيل له : هكذا كان رسول الله ﷺ يقوم من الرجل حيث قمت ، ومن المرأة حيث قمت ؟! قال : نعم .

رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه والترمذى وحسنه . قال الطماوى : وهذا أحب إلينا ، فقد قوته الآثار التى رويناها عن النبى ﷺ[١] .

الصلاة على أكثر من واحد :

إذا اجتمع أكثر من ميت وكانوا ذكوراً أو إناثاً صُفُّوا واحداً بعد واحد بين الإمام والقِبْلة ليكونوا جميعاً بين يدى الإمام ، ووضع الأفضل مما يلى الإمام ، وصلى عليهم جميعاً وصفت الرجال أمام الإمام ، وجعلت النساء مما يلى القِبْلة[٢] .

---

(١) فقه السنة (١/٤٤٣) .
(٢) المصدر السابق .

الصلاة على الغائب :

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن النبى ﷺ نعى النجاشى فى اليوم الذى مات فيه ، وخرج بهم إلى المصلى ، فصف بهم وكبر عليه أربع تكبيرات[1] .

والحق أنها محل اختلاف العلماء ، فقد ذهب الشافعيون وكثير من علماء الحنابلة إلى جوازها للحديث المتقدم وغيره ، ولكن المالكيين والأحناف ذهبوا إلى أنها لا تجوز وما فعله الرسول ﷺ كان خصوصية ولهم فى ذلك توجيهات أخرى .

والحق أن القول الأول هو الأظهر للأحاديث ولأن صلاة الغائب لا تخرج عن كونها دعاء للميت والدعاء يجوز للحى والميت حاضراً وغائباً والله تعالى أعلم .

الصلاة على السقط :

السقط هو الذكر أو الأنثى الذى ينزل قبل تمام مدة الحمل .

وقد اتفق الفقهاء على أنه إذا نزل قبل أربعة أشهر من حمله لا يغسل ولا يصلى عليه ، ويلف فى خرقة ويُدفن ، واتفقوا أيضاً على أنه لو نزل السقط حياً ولو إلى دقائق غسل وكفن وصلى عليه . بل قال الشافعية : لو ظهر منه ما يدل على حياته كأن تحرك أو تنفس غسل وكفن وصلى عليه لحديث جابر ابن عبد الله رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « **إذا استهل الصبى** (أى نزل صارخاً) **أو سمع له صوت أو وجد منه ما يدل على حياته صُلِّىَ عليه ورث ووُرِثَ** » أخرجه النسائى وابن ماجه والبيهقى .

واختلفوا فى السقط الذى نزل بعد أربعة أشهر وهى المدة التى تنفخ فيها الروح ، فقال بعضهم : يغسل ويصلى عليه ، وقال بعضهم : لا يغسل ولا يصلى عليه ، والأصح أنه يغسل ويصلى عليه ، لعموم قوله ﷺ :

« **والسقط يصلى عليه ويدعى لوالديه بالمغفرة والرحمة** » .

---

(١) رواه الجماعة .

أخرجه أحمد وأبو داود والحاكم وصححه[1] .

حضور النساء صلاة الجنازة :

يجوز للنساء حضور صلاة الجنازة بشرط أن يَكُنَّ مستترات غير متبرجات ولا متعطرات .

مكان صلاة الجنازة :

تكره صلاة الجنازة فى المقابر ، ويجوز الصلاة على الميت فى المسجد إذا لم يُخش تلويثه ، فقد صلى الصحابة على أبى بكر وعمر فى المسجد ، بدون إنكار من أحد ، وهى صلاة كسائر الصلوات ، قال ابن القيم : ولم يكن من هدى رسول الله ﷺ الراتب الصلاة على الميت فى المسجد ، وإنما كان يصلى على الجنازة خارج المسجد ، إلّا لعذر ، وربما صلى أحياناً على الميت كما صلى على ابن بيضاء ، وكلا الأمرين جائز ، والأفضل الصلاة خارج المسجد .

* * *

◉ السَّيْرُ بالجنَازة

السير فى الجنازة وحملها فرض كفاية .

ما يسن فى حملها والسير بها :

١ — يشرع تشييع الجنازة وحملها ، والسنة أن يدور على النعش ، حتى يدور على جميع الجوانب للحديث :

● عن ابن مسعود قال : « من اتبع جنازة ، فليحمل بجوانب السرير كلها فإنه من السنة ، ثم إن شاء فليتطوع ، وإن شاء فليدع »[2] . أ . هـ .

٢ — الإسراع بها للحديث :

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

« **أسرعوا بالجنازة ، فإن كانت صالحة ؛ قربتموها إلى الخير ، وإن كانت**

---

(١) الفقه الواضح (٥/٩٤) .

(٢) رواه ابن ماجه وأخرجه أبو داود والبيهقى من رواية أبى عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه .

غير ذلك ؛ فشر تضعونه عن رقابكم » أ . هـ[1] .

٣ ــ المشى أمامها أو خلفها أو عن يمينها أو شمالها قريباً منها للحديث .

● عن ابن عمر: « أنه رأى النبى ﷺ وأبا بكر وعمر يمشون أمام الجنازة » أ . هـ[1] .

وقد كره الجمهور الركوب عند تشييع الجنازة إلا لعذر وأجازوا الانصراف بدون كراهة وذلك للحديث :

● عن ثوبان قال : خرجنا مع النبى ﷺ فى جنازة ، فرأى ناساً ركباناً فقال :

« **ألا تستحيون أن ملائكة الله على أقدامهم وأنتم على ظهور الدواب** » أ . هـ[2] .

ما يكــره مـع الجنــازة :

١ ــ رفع الصوت ولو بذكر أو قراءة .

٢ ــ إتباعها بنار فذلك من أفعال الجاهلية .

٣ ــ قعود المتبع لها قبل أن توضع .

٤ ــ ذبح شاه ونحوها تحت عتبة البيت ليمر عليها نعش الميت ، وتفريق لحمها على الناس ، فذلك من البدع المذمومة .

النساء فى الجنازة :

لا يحمل الجنازة سوى الرجال ، وقد وردت أحاديث كثيرة تفيد منعهن من حمل الجنازة والسير وراءها ومنها :

● عن أنيس قال : خرجنا مع النبى ﷺ فى جنازة فرأى نسوة فقال :

« **أتحملنه ؟ . قلن : لا . قال : أتدفنه ؟ . قلن : لا . قال : فارجعن**

---

(١) رواه الخمسة واحتج به أحمد ، كذا أخرجه الدارقطنى وابن حبان وصححه . وكذلك أخرجه البيهقى .

(٢) رواه ابن ماجه والترمذى ، وسكت عنه أبو داود والمنذرى ، ولكن رجال إسناده رجال الصحيح ، والحمد لله .

(١) رواه الجماعة .

مأزورات غير مأجورات » أ. هـ[1] .

القيـام للجنـازة :

عن ابن عمر عن عامر بن ربيعة عن النبى ﷺ قال :

« **إذا رأيتم الجنازة فقوموا لها حتى تخلفكم أو توضع** » أ. هـ[2] .

قال النووى : والمختار أنه مستحب وبه قال المتولى وصاحب المهذب من الشافعية . وممن ذهب إلى استحباب القيام ابن عمر وابن مسعود وقيس بن سعد وسهل بن حنيف كما يدل على ذلك الروايات ، وقال مالك وأبو حنيفة والشافعى : إن القيام منسوخ بحديث عليٍّ الآتى — وفى الحديث أن النبى ﷺ قام للجنازة ثم جلس وأمر الصحابة بالجلوس — قال الشوكانى معقباً : « وظاهر أحاديث الباب أنه يشرع القيام لجنازة المسلم والكافر » أ. هـ[3] .

⊙ الدّفـن

حكمـه :

الدفن فرض كفاية ، وهو مواراة الميت فى باطن الأرض ، بحيث لا تظهر رائحته ولا تناله السباع ، ولا يتمكن اللصوص من سرقة كفنه بسهولة .

ما يطلب فعله عند الدفن :

١ — يستحب تعميق القبر .

٢ — ويستحب أن يوسع من جهة رأس الميت ومن ناحية رجليه .

---

(١) الحديث أخرجه أبو يعلى بسند ضعيف ، ولكن يشهد له أحاديث كثيرة منها حديث أخرجه البخارى وأحمد عن أبى سعيد الخدرى ، والحق أن الواجب منع النساء ألبتة عن السير فى الجنازة لضعفهن وعدم توافق حضورهن مع طبيعتهن .. والله تعالى أعلم .

(٢) رواه الجماعة .

(٣) نيل الأوطار (٥/٩١) .

٣ ـــ والأفضل أن يدفن الميت فى اللحد إن كانت الأرض صلبة ، فإن كانت رخوة كان دفنه فى الشق أولى ، لأن الأرض إذا كانت صلبة لا تجعل البناء يتساقط على الميت .

واللحد هو الشق فى جانب القبر جهة القبلة تُنصَب عليه اللبن فيكون كالبيت المسقف .

والشق هو حفرة عميقة كالنهر فى وسط القبر تبنى جوانبها باللبن يوضع فيه الميت ويسقف عليه بشيء كالطوب والخشب بحيث يكون السقف غير ملامس لجسد الميت[1] .

٤ ـــ ويستحب أن يدفن فى المقبرة بعيداً عن المنازل ، لأن الدفن فى المنازل خاص بالأنبياء .

٥ ـــ ويستحب أن يتولى الدفن من هو أحق بالإمامة فى الصلاة عليه ، فإن لم يكن له علم بصفة الدفن تولاه من يعلمها من المسلمين الصالحين .

٦ ـــ ويستحب أن يغطى القبر بثوب عند وضع الميت فيه ليستر به سواء كان الميت رجلاً أم امرأة ، وأن يحل أربطة الكفن لأنها لم تربط إلا لمنعه من الانزلاق .

٧ ـــ يسن إدخال الميت القبر من جهة رجليه إن أمكن بلا مشقة ، فإن لم يتمكن الدافن من ذلك أدخله من جهة رأسه .

٨ ـــ ويستحب أن يوجه الميت فى قبره إلى القبلة وذلك بأن يريح الميت على جنبه الأيمن بحيث يكون وجهه إلى القبلة .

٩ ـــ ويستحب أن يقول واضعه : (بسم الله وعلى ملة رسول الله أو على سنة رسول الله ﷺ) .

١٠ ـــ ويستحب أن يعرى خد الميت الأيمن ويوضع على لبنة أو حجر أو تراب .

---

(١) الفقه الواضح (٥/١٠٢) .

١١ــ ويستحب وضع شيء خلفه من لبن أو غيره تمنعه من الوقوع على قفاه وليظل متوجهاً إلى القبلة .

وقت الدفن وبعده :

(أ) وقـت الدفـن :

قال ابن القيم : (وكان من هديه ﷺ أن لا يدفن الميت عند طلوع الشمس ولا عند غروبها ولا حين يقوم قائم الظهيرة) أ. هـ[1] .

(ب) بعـد الدفـن :

١ ــ يطلب سد القبر سداً محكماً بالطوب اللبن فإن لم يوجد فبغيره .

٢ ــ يستحب لمن شهدوا الدفن أن يحثوا ثلاث حثيات بكلتا اليدين على القبر من جهة رأس الميت .

٣ ــ يسن للمشيعين الانتظار بعد الدفن بقدر ما ينحر جمل ويفرق لحمه على الفقراء ليستأنس بهم الميت .

٤ ــ الاستغفار له والدعاء له عند القبر بعد دفنه بالرحمة والمغفرة . كما يستحب إلقاء موعظة عند القبر .

٥ ــ يستحب عند أكثر الفقهاء تلقين الميت المكلف بعد دفنه كلمة التوحيد .

---

(١) زاد المعاد (١/١٤٥) ، ط المطبعة المصرية .

◉ أحكام .. تتعلق بالدفن وبالمقابر

من يموت فى السفينة :

قال الإمام أحمد عمن مات فى السفينة فى البحر : ينتظر به إن كانوا يرجون أن يجدوا له موضعاً يدفنونه فيه؛ حبسوه يوماً أو يومين، مالم يخافوا عليه الفساد فإن لم يجدوا؛ غسل، وكفن وحنط ويصلى عليه، ويثقل بشيء ويلقى فى الماء.

من ماتت وفى بطنها جنين حى :

● إذا ماتت مسلمة وفى بطنها جنين حى وجب شق بطنها وإخراجه منها ويعمل ذلك الأطباء الموثوق بهم .

أين تدفن الكتابية زوجة المسلم ؟

● إذا ماتت كتابية وفى بطنها جنين لزوجها المسلم دفنت بين مقبرتى المسلمين والكفار عند أكثر الفقهاء .

أى المقابر يصلح للدفن ؟

● يستحب أن يوصى المسلم بدفنه فى مقابر الصالحين .

● ويستحب دفن الأهل فى مكان واحد ليتمكن الأقارب من زيارتهم جميعاً فى وقت واحد .

المشى فى المقابر بالنعال :

ذهب أكثر أهل العلم إلى أن لا بأس بالمشى فى المقابر بالنعال . ولكن الإمام أحمد كره ذلك والكراهة عنده عند عدم العذر ،ومعلوم أن الأعذار موجودة كالشوك والنجاسات فتنتفى الكراهة .

نبـــش القبـــور :

القبر وقف على صاحبه ما بقى منه شيء من لحم أو عظم ، فإن بقى منه شيء فالحرمة باقية لجميعه ، فإن بلى وصار تراباً جاز الدفن فى موضعه ، وجاز الانتفاع بأرضه ، ومن دُفن من غير أن يصلى عليه أُخرِجَ من القبر ، إن كان لم يُهل عليه التراب ، وصُلِّيَ عليه ، ثم أعيد دفنه ، وإن كان أهيل عليه التراب ، حُرِّم نبش قبره وإخراجه منه ، وصُلِّى عليه وهو فى القبر . ويجوز نبش القبر لغرض صحيح مثل إخراج مال ترك فى القبر ، وتوجيه الميت جهة القبلة ، وتغسيل من دُفن بغير غسل ، وتحسين الكفن ، هذا إلا أن يخشى عليه أن يتفسخ فيُترك .

الجُلوس عَلى القبر :

عن عمارة بن حزم رضى الله عنه قال : رآنى رسول الله ﷺ جالساً على قبر فقال :

« **ياصاحب القبر انزل من على القبر لا تؤذى صاحب القبر ولا يؤذيك** » رواه الطبرانى فى الكبير .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« **لأن يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه فتخلص إلى جلده خير له من أن يجلس على قبر** » رواه مسلم وأبو داود .

وعن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« **لأن أمش على جمرة أو رضف[1] أو أخصف (يعنى) برجلى أحب إلى من أن أمشى على قبر** » رواه ابن ماجه بإسناد جيد .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال :

(لأن أطأ على جمرة أحب إلى من أن أطأ على قبر مسلم) . رواه الطبرانى بإسناد حسن .

---

(١) الرضف : الحجارة .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ :

« **كسر عظم الميت ككسره حياً** » رواه أبو داود وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه .

ذكر مساوىء الأموات وسبهم :

عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ :

« **لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا** » أ. هـ[1] .

فلا يحل — كما تقدم — سب أموات المسلمين ولا ذكر مساوئهم ، أما المسلمون المعلنون بفسق أو بدعة أو عمل فاسد فإنه يباح ذكر مساويهم إذا كان فيه مصلحة تدعو إليه ، كالتحذير من حالهم .. والله أعلم .

زيَارة القبُور :

كان الرسول ﷺ قد نهى عن زيارة القبور للرجال والنساء ثم أذن للرجال فى زيارتها واستمر النهى فى حق النساء .

فعن ابن بريدة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ :

« **قد كنت نهيتكم عن زيارة القبور فقد أذن لمحمد فى زيارة قبر أمه فزوروها فإنها تُذَكِر الآخرة** » رواه الترمذى .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« **كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروا القبور فإنما تزهد فى الدنيا وتذكر الآخرة** » رواه ابن ماجه بإسناد صحيح .

وعن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« **زر القبور تذكر بها الآخرة ، واغسل الموتى فإن معالجة جسد خاوٍ موعظة بليغة ، وصل على الجنائز لعل ذلك يحزنك فإن الحزين فى ظل الله يتعرض كل خير** » رواه الحاكم .

---

(١) رواه أحمد والبخارى والنسائى .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ « **لعن زوارات القبور** » رواه الترمذى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ « **لعن زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج** » رواه أبو داود والترمذى .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : قبرنا مع رسول الله ﷺ ميتاً ، فلما فرغنا انصرف رسول الله ﷺ وانصرفنا معه ، فلما حاذى رسول الله ﷺ بابه وقف ، فإذا نحن بامرأة مقبلة ، قال ـ أظنه عرفها ـ فلما ذهبت إذ فاطمة رضى الله عنها ، فقال لها رسول الله ﷺ : « **ما أخرجك يا فاطمة من بيتك ؟** » . قالت : أتيت يا رسول الله أهل هذا الميت فرحمت إليهم ميتهم أو عزيتهم به . فقال رسول الله ﷺ : « **لعلك بلغت معهم الكدى** »[1] . فقالت : معاذ الله وقد سمعتك تذكر فيها ما تذكر . قال ﷺ : « **لو بلغت معهم الكدى** ... » (فذكر تشديداً فى ذلك) . قال : فسألت ربيعة بن سيف عن الكدى فقال : القبور أحسب . (رواه أبو داود والنسائى) .

وروى عن على رضى الله عنه قال : خرج رسول الله ﷺ . فإذا نسوة جلوس فقال : « **ما يجلسكن ؟** » . قلن : ننتظر الجنازة . قال : « **هل تغسلن ؟** » . قلن : لا . قال : « **هل تحملن ؟** » . قلن : لا . قال : « **هل تدلين فيمن يدلى ؟** »[2] . قلن : لا . قال : « **فارجعن مأزورات غير مأجورات** » . رواه ابن ماجه ، ورواه أبو يعلى من حديث أنس .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ خرج إلى المقبرة فقال :

« **السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون** » .

(رواه أبو داود والنسائى وابن ماجه)

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يخرج من آخر

---

(١) الكدى : جمع كدية وهى القطعة الغليظة الصلبة من الحجارة وسميت المقابر : كدى لأنها كانت مقابرهم فى مواضع صلبة .

(٢) تدلين فيمن يدلى : أى تنزلن الميت فى قبره .

الليل إلى البقيع فيقول :

« السلام عليكم دار قوم مؤمنين وأتاكم ما توعدون غدا مؤجلون وإن شاء الله بكم لاحقون اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد[1] » .

(رواه مسلم)

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : مر رسول الله ﷺ بقبور المدينة فأقبل عليهم بوجهه فقال :

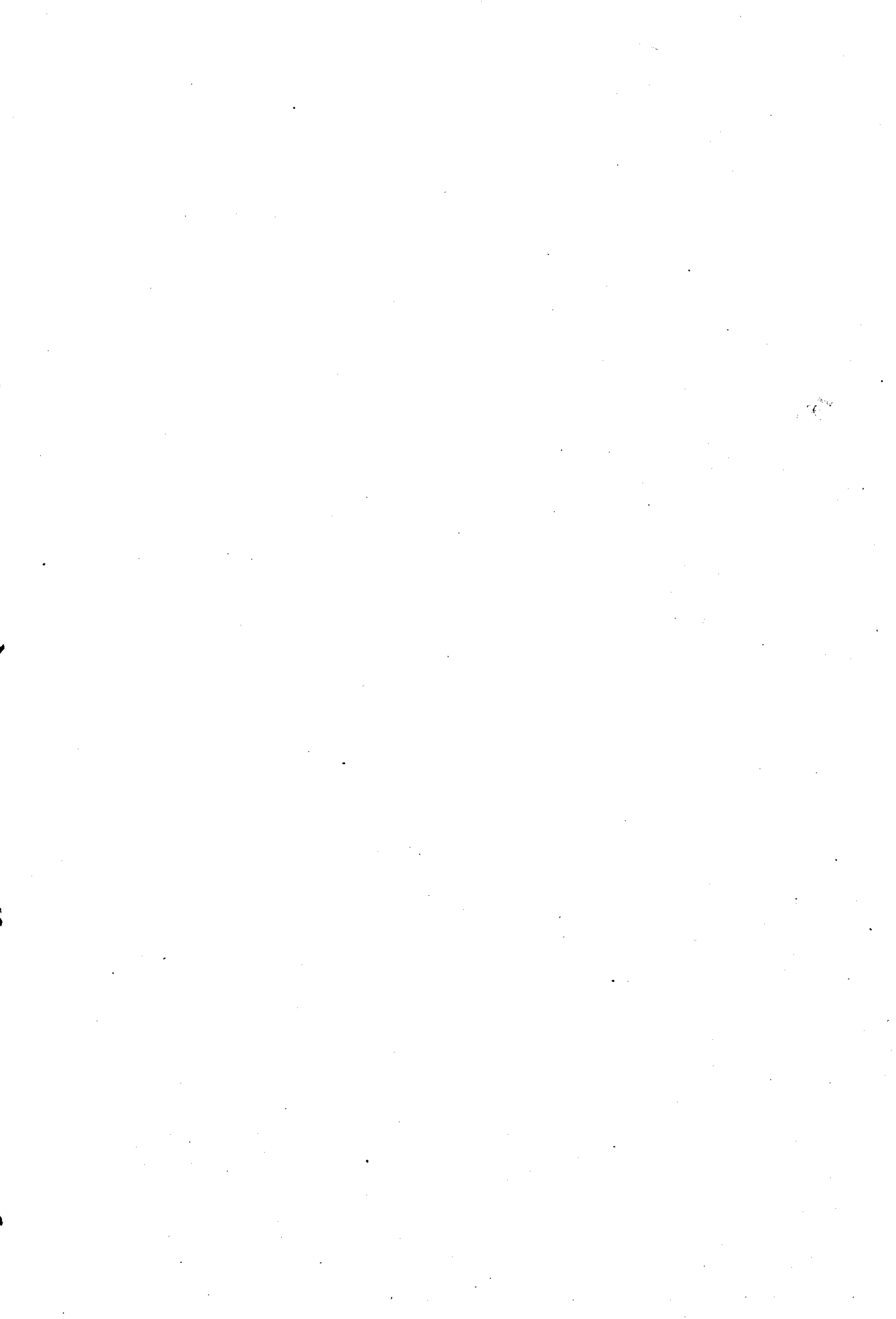
« السلام عليكم يا أهل القبور يغفر الله لنا ولكم ،وأنتم سلفنا ونحن بالأثر » .

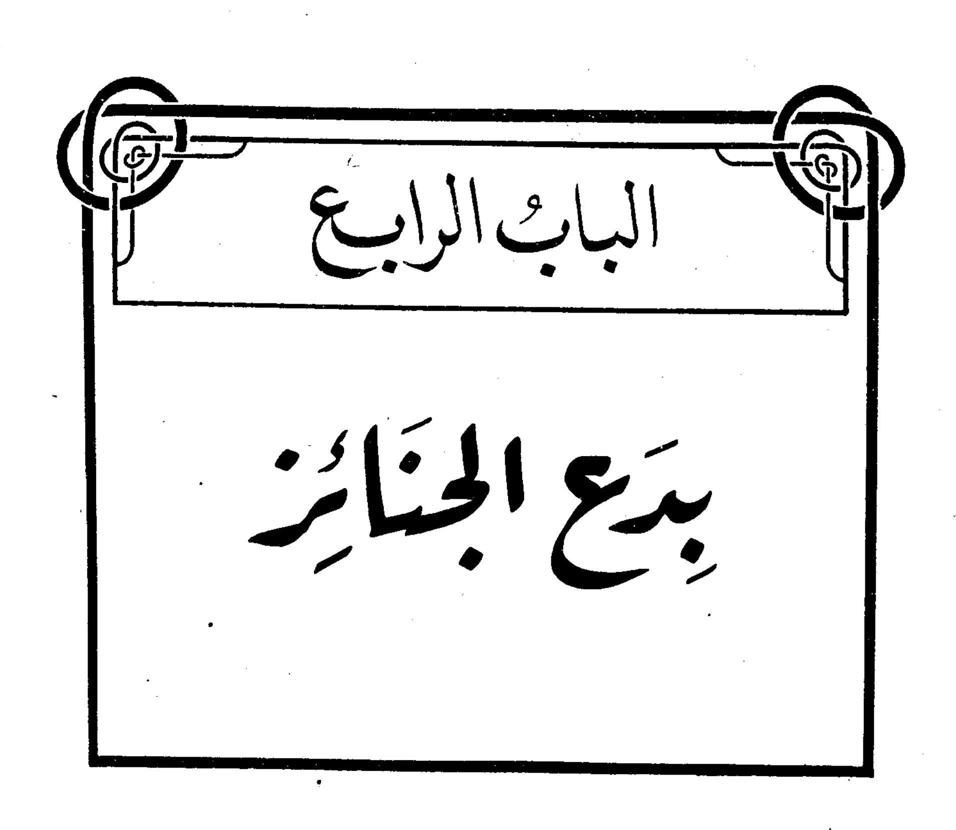
(رواه الترمذى وقال : حديث حسن)

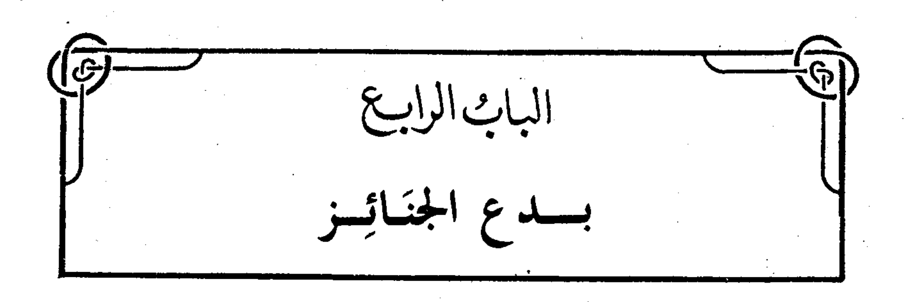




(١) البقيع : مقبرة أهل المدينة ، وأصل البقيع فى اللغة الموضع الذى فيه أروم الشجر من ضروب شتى وبه سمى بقيع الغرقد . والغرقد : كبار العوسج وهو نوع من النبات كالباذنجان .




الباب الرابع
بدع الجنائز



الباب الرابع

بدع الجنائز

النياحة والندب وغيرهما ..

١ ــ عن ابن مسعود أن النبى ﷺ قال :

« **ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية** »(١) أ. هـ .

٢ ــ وعن أبى بردة قال : « وجع أبو موسى وجعاً فغشى عليه ورأسه فى حجر امرأة من أهله ، فصاحت امرأة من أهله فلم يستطع أن يرد عليها شيئاً ، فلما أفاق قال : أنا برىء ممن برىء منه رسول الله ﷺ ، فإن رسول الله ﷺ برىء من الصالقة والحالقة والشاقة » أ. هـ(٢) .

٣ ــ عن المغيرة بن شعبة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« **من نيح عليه فإنه يعذب بما نيح عليه** » أ. هـ(٣) .

٤ ــ وعن عائشة قالت : إنما قال رسول الله ﷺ :

« **إن الله ليزيد الكافر ببكاء أهله عليه** » أ. هـ(٤) .

٥ ــ وعن أبى مالك الأشعرى أن النبى ﷺ قال :

« **أربع فى أمتى من أمر الجاهلية لا يتركونهن : الفخر بالأحساب ، والطعن فى الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة وقال : النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قَطران ودرع من جرب** » أ. هـ(٥) .

---

(١)، (٢)، (٣)، (٤) متفق عليها ، والصالقة هى التى ترفع صوتها بالفجيعة عند الموت .

(٥) رواه أحمد ومسلم .

٦ ــ وعن أبى موسى أن النبى ﷺ قال :

« **الميت يعذب ببكاء الحى : إذا قالت النائحة : واعضداه ، واناصراه ، واكاسباه . جبذ[١] الميت وقيل له : أنت عضدها ، أنت ناصرها أنت كاسبها ؟** وفى رواية : « **ما من ميت يموت فيقوم باكيه فيقول واجبلاه واسنداه أو نحو ذلك ، إلا وكل به ملكان يلهزانه[٢] أهكذا كنت ؟** » أ . هـ[٣] .

ومما سبق نجد أن الشارع الحكيم نهى عن النياحة . ومن العلماء من ذهب إلى تحريمها كما قال الإمام النووى : وإنما الواجب الصبر والاحتساب عند الله والقول : ﴿ **إنا لله وإنا إليه راجعون** ﴾ .

اتباع الجنازة بمشاعل :

ويكره فى الجنازة أن تتبع بنار ، لأن ذلك من أفعال الجاهلية ، قال ابن المنذر : يكره ذلك كل من يحفظ عنه من أهل العلم ، ولكن إذا كان الدفن ليلاً واحتاجوا إلى ضوء فلا بأس به[٤] .

قراءة القرآن عند المقابر

اختلف العلماء فيها ، فمنهم من ذهب إلى استحبابها ومنهم من كرهها لعدم ورودها فى السنة .

ولكن فى زماننا انقلبت إلى بدعة حيث يتوافد أناس لا يعرفون حقاً للقرآن ويتأكلون بقراءته فيأتون على القبر كالشياطين ، فهؤلاء لا تصح قراءتهم وعلى أهل الميت منعهم .

---

(١) جبذ : جذب الميت لسؤاله عما قالته النائحة .
(٢) يلهزانه : يلكزانه ، أى يضربانه بجمع اليد فى اللهزمة والرقبة .
(٣) أخرجه الحاكم وصححه ، والترمذى وحسنه .
(٤) فقه السنة بتصرف (١/٤٥٤) .

إقامة السرادقات وإحياء ليالى المآتم ..

لم نعلم على عهد رسول الله ﷺ سرادقاً أقيم ، أو قارئاً قرأ ليجتمع الناس ، فإقامة السرادقات من البدع المستحدثة التى يجب أن تنتهى من حياة المسلمين ، لأنه عمل ليس عليه أمرهم . وسيتضح ذلك عند كلامنا عن التعزية فى الإسلام .

بناء المقابر ورفعها ..

● عن ابن الهياج الأسدى عن على قال : أبعثك على ما بعثنى عليه رسول الله ﷺ : لا تدع تمثالاً إلا طمسته ، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته[1] .

قال العلّامة الشوكانى فى نيل الأوطار :

(والظاهر أن رفع القبور زيادة على القدر المأذون فيه محرم ، وقد صرح بذلك أصحاب أحمد وجماعة من أصحاب الشافعى ومالك ، والقول بأنه غير محظور لوقوعه من السلف والخلف بلا نكير — كما قال الإمام يحيى والمهدى فى الغيث — لا يصح . لأن غاية ما فيه أنهم سكتوا عن ذلك ، والسكوت لا يكون دليلاً إذا كان فى الأمور الظنية . وتحريم رفع القبور ظن . ومن رفع القبور ـ الداخل تحت الحديث دخولاً أولياً ـ القباب والمشاهد المعمورة على القبور ، وأيضاً هو من اتخاذ القبور مساجد . وقد لعن رسول الله ﷺ فاعل ذلك . وكم قد جرى عن تشييد أبنية القبور . وتحسينها مفاسد يبكى لها الإسلام : منها اعتقاد الجهلة فيها كاعتقاد الكفار فى الأصنام ، وعظموا ذلك . فظنوا أنها قادرة على جلب النفع ودفع الضر فجعلوها مقصداً لطلب قضاء الحوائج وملجأ لنجاح المطالب ، وسألوا منها ما يسأل العباد من ربهم . وشدوا إليها الرحال وتمسحوا بها واستغاثوا .

وبالجملة : فإنهم لم يدعوا شيئاً مِمَّا كانت الجاهلية تفعله بالأصنام إلا فعلوه . فإنا لله وإنا إليه راجعون .

---

(١) رواه الجماعة إلا البخارى وابن ماجه .

ومع هذا المنكر الشنيع . والكفر الفظيع ، لا تجد من يغضب لله ، ويغار حمية للدين الحنيف لا عالماً ولا متعلماً ، ولا أميراً ولا وزيراً ولا ملكاً ، وقد تواردإلينا من الأخبار ما لا يشك معه أن كثيراً من هؤلاء القبوريين أو أكثرهم إذا توجهت عليه يمين من جهة خصمه . حلف بالله فاجراً ، فإذا قيل له بعد ذلك ، بشيخك ومعتقدك الولى الفلانى تلعثم وتلكأ وأبى واعترف بالحق ، وهذا من أبين الأدلة الدالة على أن شركهم قد بلغ فوق شرك من قال : إنه تعالى ثانى اثنين . أو ثالث ثلاثة .

فيا علماء الدين، ويا ملوك الإسلام، أى رزء للإسلام أشد من الكفر؟ وأى بلاء لهذا الدين أضر عليه من عبادة غير الله ؟ وأى مصيبة يصاب بها المسلمون تعدل هذه المصيبة ؟ وأى منكر يجب تركه إن لم يكن إنكار هذا الشرك البين واجباً ؟

لقد أسمعت لو ناديت حيًّا ... ولكن لا حياة لمن تنادى !!
ولو ناراً نفخت بها أضاءت ... ولكن أنت تنفخ فى رماد[1]

قال ابن القيم :

(ولم يكن من هديه ﷺ تعلية القبور ولا بناؤها بآجر[2] . ولا بحجر ولَبِن ولا تشييدها ولا تطيينها ولا بناء القباب عليها ، فكل هذا بدعة مكروهة مخالفة لهديه ﷺ .

وقد بعث على بن أبى طالب رضى الله عنه أن لا يدع تمثالاً إلا طمسه ، ولا قبراً مشرفاً إلا سواه ، فسنته ﷺ تسوية هذه القبور المشرفة كلها ونهى أن يجصص القبر وأن يكتب عليه ، وكانت قبور أصحابه لا مُشْرَفَةً

---

(١) (١٠١/٥) . وقد حرصت على سرد كلام العلامة حتى يتبين القارىء المسلم حالة المسلمين الآن ، فإذا كان ذلك فى عصره ، فماذا لو رأى ما يحدث فى عصرنا ، والمعروف أن الشوكانى من علماء القرن الحادى عشر ، وقد بلغ الحال فى بعض مقابر زماننا أن أدخلت فيها المياه والأنوار والاستراحات ذات الأبواب الحديدية . وعجباً لهم أو لم يسمعوا :

أحياؤنا لا يرزقون بدرهـم ... وبألف ألفٍ تُرزَق الأموات !

(٢) الآجر : الطوب الأحمر .

ولا واطئة ، وهكذا كان قبره الكريم وقبر صاحبيه ،وقبره ﷺ مبطوحاً ببطحاء العرصة الحمراء لا مبنياً ولا مطيَّناً ، وهكذا كان قبر صاحبيه ، وكان يُعْلَم قبرُ مَنْ يُرَادُ تَعَرُّفُ قبره بصخرة) أ. هـ[1] .

إقامةُ المسَاجِد والسُّرُجِ عَلى المقابر :

عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال :

« **قاتل الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد** » أ. هـ[2] .

وعن ابن عباس قال : (لعن رسول الله ﷺ زائراتِ القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج) أ. هـ[3] .

والحديثان فيهما دليلان على تحريم اتخاذ القبور مساجد ، وقد زعم بعضهم أن ذلك إنما كان فى ذلك الزمان لقرب العهد بعبادة الأوثان ، ورده ابن دقيق العيد .

وعلى تحريم اتخاذ السرج على المقابر لما يفضى إليه من ذلك الاعتقادات الفاسدة ، وفيه دليل كذلك على حرمة زيارة النساء للمقابر .

قال ابن القيم :

(ونهى رسول الله ﷺ عن اتخاذ القبور مساجد ، وإيقاد السرج عليها ، واشتد نهيه فى ذلك حتى لعن فاعله ونهى عن الصلاة إلى القبور ونهى أمته أن يتخذوا قبره عيداً ، ولعن زوارات القبور ، وكان هديه أن لا تهان القبور وتوطأ ويجلس عليها ، ويتكأ عليها ، ولا تعظم بحيث تتخذ مساجد فيصلى عندها وإليها وتتخذ أعياداً وأوثاناً) أ. هـ[4] .

ولو أبيح لم يلعن النبى ﷺ من فعله ، ولأن فيه تضييعاً للمال من غير فائدة وإفراطاً فى تعظيم القبور أشبه بتعظيم الأصنام .

---

(١) زاد المعاد (١٤٦/١) .

(٢) متفق عليه

(٣) رواه الخمسة وابن ماجه ، والحديث حسنه الترمذى .

(٤) المرجع السابق .

ولا يجوز اتخاذ المساجد على القبور ..

وقالت عائشة : إنما لم يبرز قبر رسول الله ﷺ لئلا يتخذ مسجداً ، ولأن تخصيص القبور بالصلاة تعظيم للأموات باتخاذ صورهم ومسحها والصلاة عليها .

قال معلقه : يشير إلى ما رواه البخارى عن ابن عباس عن سبب اتخاذ قوم نوح للأصنام : ودّ ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسر وحاصله : أن هذه أسماء رجال صالحين اتخذ الناس لهم صوراً بعد موتهم ليتذكروا بها فيقتدوا بهم ، فلما ذهب العلم ، زين لهم الشيطان عبادة صورهم وتماثيلهم بتعظيمها والتمسح بها ، والتقرب إليها ، ومسحها : إمراراً لليد عليها تبركاً وتوسلاً بها ، وكذلك فعل الناس بقبور الصالحين ، وسرى ذلك من الوثنيين إلى أهل الكتاب فالمسلمين . فالأصنام فى ذلك سواء) أ . هـ[1] .

الذبح عند القبر :

نهى الإسلام عن الذبح عند القبر لأنه من أفعال الجاهلية ، قال الخطابى : كان أهل الجاهلية يعقرون الإبل على قبر الرجل الجواد ، يقولون نجازيه على فعله ، لأنه كان يعقرها فى حياته ، فيطعمها الأضياف ، فنحن نعقرها عند قبره لتأكلها السباع والطير . فيكون مطعماً بعد مماته كما كان مطعماً فى حياته .

تجصيص القبور والكتابة عليها :

نهى الشرع عن تجصيص القبور بالجبس ونحوه لأنه قد أعد للبلى ، والميت لا حاجة له بالزينه ، وروى عن بعض الفقهاء تحريمه ، وأيضاً تكره الكتابة عليه ولو آية من القرآن ، ولكن يجوز وضع علامة على القبر من حجر أو خشب أو صخرة ليعرف بها .

وضع الخوص والزهور على القبر :

لا يستحب وضع الجريد أو الخوص والزهور على قبر الميت ، عن أكثر أهل العلم .

(١) بتصرف عن فقه السنة (١/٦٦٤) .

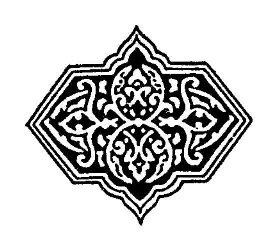
إعداد الطعام لأهل الميت وللمعزين :

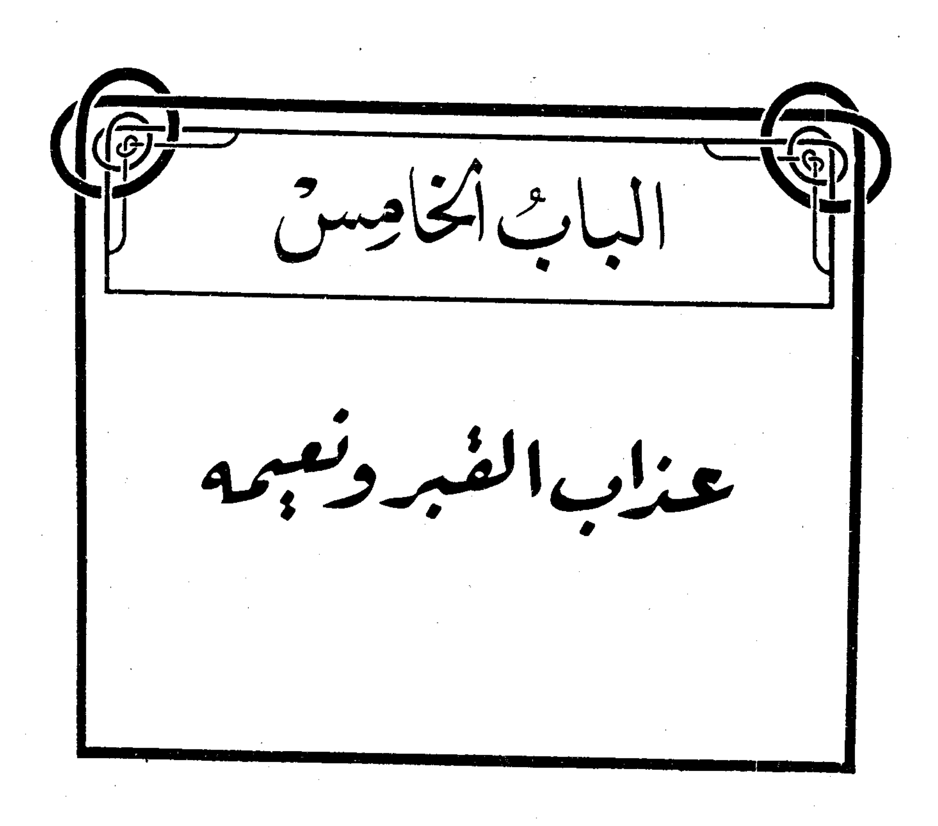
يستحب صنع الطعام لأهل الميت ، واتفق الأئمة على كراهة صنع أهل الميت طعاماً للناس يجتمعون عليه ، لما فى ذلك من زيادة المصاب عليهم . وشغل إلى شغلهم ، وذهب بعض العلماء إلى تحريم ذلك عليهم .

التعْـــزيَـــة :

التعزية مستحبة لما فيها من التعاون والتراحم والثواب العظيم ، وتكون لجميع أهل الميت صغاراً وكباراً ذكوراً وإناثاً ، ويجب على المعزى أن يخاطب الكبير بما يتفق معه ، والصغير بما يتفق معه ، أما الجلوس للتعزية ، والمآتم والسرادقات فقد كرهها الشارع ، لأنها من البدع ، ولما يداخلها من التفاخر والإسراف .

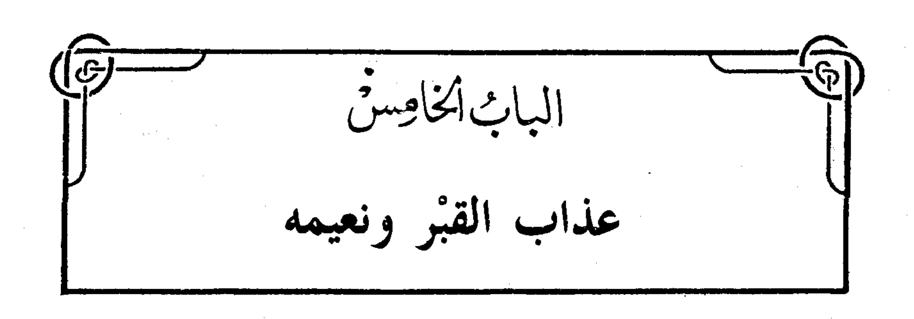
قال الشافعى : أكره المأتم ـ وهى الجماعة وإن لم يكن لهم بكاء ـ فإن ذلك يجدد الحزن ويكلف المؤنة .





الباب الخامس

عذاب القبر ونعيمه



الباب الخامس

عذاب القبْر ونعيمه

عذاب القبر ونعيمه حق كما صرحت به الأحاديث الصحيحة ، والإيمان بهما واجب .. فالمرء إذا مات إما أن يكون فى نعيم أو عذاب ، وإن الروح تبقى بعد مفارقة البدن .. إما منعمة أو معذبة . وعند البعث تعاد الأرواح إلى الأجساد .

ولقد جاء القرآن الكريم مبيناً لهذا بالأدلة والآيات الواضحة ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطواْ أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾[1] .

فقوله : **﴿ اليوم تجزون عذاب الهون ﴾** أى يوم تخرج أنفسهم .

ومن ذلك قوله تعالى : **﴿ فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب . النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾**[2] .

فقوله : **﴿ غدواً وعشياً ﴾** أى صباحاً ومساء وذلك فى النار .

وقوله تعالى أيضاً : **﴿ مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً ﴾**[3] أعقب الإغراق إدخال النار والإحراق بها .

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : ٩٣ .

(٢) سورة غافر ، الآية : ٤٥ ، ٤٦

(٣) سورة نوح ، الآية : ٢٥ .

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ ولنذيقنَّهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون ﴾[٢] فالعذاب الأدنى قبل الحشر والعذاب الأكبر بعده .

وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها قالت : دخلت علىَّ عجوز من عجائز يهود أهل المدينة فقالت : إن أهل القبور يعذبون فى قبورهم . قالت : فكذبتها ولم أنعم أن أصدقها . قالت : فخرجت ودخل علىَّ رسول الله ﷺ فقلت : يارسول الله ، إن عجوزاً من عجائز يهود أهل المدينة دخلت فزعمت أن أهل القبور يعذبون فى قبورهم ، قال : « **صدقت إنهم يعذبون عذاباً تسمعه البهائم كلها** » . قالت : فما رأيته بعد فى صلاة إلا يتعوذ من عذاب القبر .

وفى صحيح ابن حبان عن أم مبشر قالت : دخل علىَّ رسول الله ﷺ وهو يقول : « **تعوذوا بالله من عذاب القبر** » . فقالت : يارسول الله ، وللقبر عذاب ؟ قال : « **إنهم ليعذبون فى قبورهم عذاباً تسمعه البهائم** » .

وعذاب القبر هو عذاب البرزخ[٣] فكل من مات وهو مستحق العذاب ناله نصيبه منه قبر أو لم يقبر ، فلو أكلته السباع أو أحرق حتى صار رماداً ونسف فى الهواء أو أغرق فى البحر وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى موتى القبور .

روى البخارى ومسلم عن حذيفة بن اليمان أنه سمع رسول الله ﷺ يقول :

« **إن رجلاً من بنى إسرائيل حضره الموت فلما يئس من الحياة أوصى أهله إذا أنا مت فاجمعوا لى حطباً كثيراً وأوقدوا فيه ناراً حتى إذا أكَلَتْ لحمى وخَلُصَت إلى عظمى فامتحشت[٣] فخذوها فاطحنوها ثم انظروا يوماً راحاً[٤] ، فذروه فى اليم[٥] ففعلوا فجمعه الله فقال له : لم فعلت ذلك ؟ قال : من خشيتك ، فغفر له** » .

---

(١) سورة السجدة ، الآية : ٢١ .
(٢) البرزخ : الفترة ما بين الموت والبعث .
(٣) أى احترقت .
(٤) أى كثير الرياح .
(٥) اليم : البحر .

والنار التى فى القبر والخضرة ليست من نار الدنيا ولا من زروع الدنيا فيشاهده من شاهد نار الدنيا فلا يحس به أهل الدنيا فإن الله سبحانه يحمى عليه ذلك التراب والحجارة التى عليه وتحته حتى يكون أعظم حراً من جمر الدنيا ولو لمسها أهل الدنيا لم يحسوا بذلك . وأعجب من هذا أن الرجلين يدفنان أحدهما إلى جنب الآخر وهذا فى حفرة من حفر النار لا يصل حرها إلى جاره، وذلك فى روضة من رياض الجنة لا يصل روحها ونعيمها إلى جاره .

وقد يشاء الله أن يطلع على ذلك بعض عبيده ويغيبه عن غيره إذ لو اطلع العباد كلهم لزال التكليف والإيمان بالغيب ولما تدافن الناس كما قال ﷺ فى الصحيحين :

« لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر ما أسمع » .

فرؤية هذه النار فى القبر كرؤية الملائكة والجن تقع أحياناً لمن يشاء الله أن يريه ذلك .

وقد ذكر ابن أبى الدنيا فى كتاب (القبور) عن الشعبى أنه ذكر أن رجلاً قال للنبى ﷺ : مررت ببدر فرأيت رجلاً يخرج من الأرض فيضربه رجل بمقمعة[1] حتى يغيب فى الأرض ثم يخرج فيفعل به ذلك . فقال رسول الله ﷺ :

« ذلك أبو جهل بن هشام يعذب إلى يوم القيامة » .

ضغطة القبر :

للقبر ضغطة لو نجا منها أحد لنجا سعد بن معاذ ، فقد روى النسائى أن النبى ﷺ قال فى سعد بن معاذ :

« لقد تحرك له العرش وفتحت له أبواب السماء وشهده سبعون ألفاً من الملائكة ولقد ضمه[2] ثم فرج عنه » .

(١) المقمعة : سوط من حديد رأسه معوجة .

(٢) أى ضمه القبر بحافتيه .

هذا الضغط أو الضم يكون بعد سؤال الميت ، ويختلف الضم باختلاف العمل؛الصالح يضمه القبر كما تضم الأم الحنون ولدها ، والطالح يضمه القبر ويضغط عليه حتى تختلف أضلاعه .

وحكمة ضغطة القبر وضمه هى ما رواه ابن أبى الدنيا عن محمد التيمى قال : كان يقال إن الأرض أمهم ومنها خلقوا وغابوا عنها الغيبة الطويلة فلما ردوا إليها ضمتهم ضمة الوالدة التى غاب عنها ولدها ثم قدم عليها ، فمن كان لله مطيعاً ضمتة برأفة ورفق ، ومن كان عاصياً ضمته بعنف سخطاً منها عليه لربها .

وقال الحكيم الترمذى : سبب هذه الضغطة أنه ما من أحد إلا وقد ألم بذنب فتدركه هذه الضغطة جزاء له ثم تدركه الرحمة

وروى الترمذى أن رسول الله ﷺ دخل مصلاه فرأى أناساً يكثرون الكلام فقال :

« أما إنكم لو أكثرتم ذكر هادم اللذات ، لشغلكم عما أرى — الموت — فأكثروا من ذكر هادم اللذات — الموت — فإنه لم يأت على القبر يوم إلا تكلم فيه ، فيقول: أنا بيت الغربة ، وأنا بيت الوحدة ، وأنا بيت التراب ، وأنا بيت الدود . فإذا دفن العبد المؤمن ، قال له القبر : مرحباً وأهلاً ، أما إن كنت لأحبُّ من يمشى على ظهرى إلىَّ ، فإذ وُلِّيتك اليوم وصرت إلىَّ ، فسترى صنيعى بك ، قال : فيتسع له مَدَّ بصره ، ويفتح له باب إلى الجنة . وإذا دفن العبد الفاجر أو الكافر ، قال له القبر : لا مرحباً ولا أهلاً ، أما إن كنت لأبغض منْ يمشى على ظهرى إلىَّ فإذ وُليتك اليوم وصرت إلىَّ ، فسترى صنيعى بك ، قال : فيلتئم عليه حتى تلتقى عليه وتختلف أضلاعه » قال : قال رسول الله ﷺ بأصابعه ، فأدخل بعضها فى جوف بعض ، قال : **« ويقيِّض الله له سبعين تنيناً ، لو أن واحداً منها نفخ فى الأرض ما أنبتت شيئاً ، ما بقيت الدنيا ، فينهشنه وتخدشنه حتى يفضى به الحساب »** قال : قال رسول الله ﷺ : **« إنما القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار »** .

وروى الإمام أحمد وأبو داود عن البراء بن عازب رضى الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ فى جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ولم يلحد ، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأنما على رءوسنا الطير فجعل رسول الله ﷺ يرفع بصره وينظر إلى السماء ويخفض بصره وينظر إلى القبر ثم قال : « **أعوذ بالله من عذاب القبر** » ، قالها مراراً ثم قال : « **إن العبد المؤمن إذا كان من قبل الآخرة وانقطاع عن الدنيا جاءه ملك الموت فجلس عند رأسه فيقول : اخرجى أيتها النفس المطمئنة إلى مغفرة من الله ورضوانه فتخرج نفسه تسيل كما يسيل قطر السقاء[1] ثم تنزل ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجههم الشمس ، معهم أكفان من أكفان الجنة وحَنُوطٌ[2] من حنوطها فيجلسون منه مد البصر فإذا قبضها المَلَك لم يَدعُوها فى يده طرفة عين . قال : فذلك قول الله تعالى : ﴿ توفته رسلنا وهم لا يفرطون ﴾[3] ، قال : فتخرج نفسه كأطيب ريح وجدت بها الملائكة فلا يأتون على جند فيما بين السماء والأرض إلا قالوا ما هذه الروح ؟ فيقال : فلان ــ بأحسن أسمائه ــ حتى ينتهوا به إلى أبواب السماء الدنيا فيفتح له ويشيعه من كل سماء مُقَرَّبوها حتى ينتهى إلى السماء السابعة فيقال : اكتبوا له كتابه فى عليين وما أدراك ما عليون ، كتاب مرقوم يشهده المقربون .. فيكتب كتابه فى عليين ثم يقال : ردوه إلى الأرض فإنى وعدتهم أنى منها خلقتهم وفيها نعيدهم ومنها نخرجهم تارة أخرى . قال : فيرد إلى الأرض وتعاد روحه فيأتيه ملكان شديدا الانتهار فينهرانه ويجلسانه فيقولان : من ربك وما دينك ؟ فيقول : ربى الله ودينى الإسلام . فيقولان : ما تقول فى هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول : هو رسول الله ، فيقولان : ما بيديه ؟ فيقول : جاء بالبينات من ربنا فآمنت به وصدقت ، قال : وذلك قول الله تعالى : ﴿ يُثَبّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة**

---

(١) قطر السقاء : السقاء وعاء من جلد والقطر الماء ، أى تسيل روحه قطرات .
(٢) حنوط : الطيب يطيب به الميت .
(٣) سورة الأنعام ، الآية : ٦١ .

الدنيا وفى الآخرة ﴾[1] قال : فينادى منادٍ من السماء : صدق عبدى فألبسوه من الجنة وأروه منزلَه منها ، فيفسح له مد البصر ثم قال : ويمثل له عمله فى صورة رجل حسن الوجه طيب الريح حسن الثياب فيقول له أبشر بما أعد الله لك ، أبشر برضوان الله وجنات النعيم ، فيقول : بشرك الله بخير من أنت ؟ فوجهك الذى جاء بالخير ، فيقول : هذا يومك الذى كنت توعد ، أنا عملك الصالح فوالله ما علمتك إلا كنت سريعاً فى طاعة الله، بطيئاً عن معصية الله فجزاك الله خيرا ، فيقول : يارب أقم الساعة كى أرجع إلى أهلى ومالى . قال : فإن كان فاجراً وكان من قبل الدنيا وانقطاع عن الآخرة جاءه ملك الموت فجلس عند رأسه فقال : أخرجى أيتها النفس الخبيثة اخرجى بسخط الله وغضبه فتنزل ملائكة سود الوجوه معهم مسوح[2] من النار ، فإذا قبضها الملك قاموا فلم يدعوها فى يده طرفة عين تتفرق فيستخرجها وقد تقطع منها العروق والعصب كالسفود[3] الكثير الشعب فى الصوف المبلول ، فتؤخذ من الملك فتخرج كأنتن جيفة وجدت فلا تمر على جند فيما بين السماء والأرض إلا قالوا ما هذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون : هذا فلان ـ بأسوأ أسمائه ـ حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا فلا تفتح لها فيقولون : ردوها إلى الأرض إنى وعدتهم أنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى، فيرمى به من السماء وتلا هذه الآية : ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ﴾[4] قال : فيعاد إلى الأرض فتعاد فيه الروح ويأتيه ملكان شديدا الانتهار فينهرانه ويجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ وما دينك ؟ فيقول : لا أدرى . فيقولان : ما تقول فى هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فلا يهتدى لاسمه . فيقال : محمد ، فيقول : لا أدرى ، سمعت الناس يقولون ذلك فقلته . قال : فيقال له : لا دريت . فيضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه

---

(١) سورة إبراهيم ، الآية : ٢٧ .
(٢) مسوح : جمع مسح بكسر الميم كساء فيه شعر .
(٣) السفود : حديدة يشوى عليها اللحم .
(٤) سورة الحج ، الآية : ٣١ .

ويمثل له عمله فى صورة رجل قبيح الوجه منتن الريح قبيح الثياب، فيقول أبشر بعذاب الله وسخطه ، فيقول : من أنت ؟فوجهك الذى جاء بالشر ، فيقول : أنا عملك الخبيث فوالله ما علمتك إلا بطيئاً فى طاعة الله سريعاً إلى المعصية ، قال : فيقيض[1] الله له أصم أبكم ومعه مرزبة لو ضرب بها جبل لصار تراباً فيضربه ضربة فيسمعها الخلائق إلا الثقلين[2] ثم يقال افرشوا له لوحين من نار وافتحوا له باباً إلى النار » .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال :

« إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة » .

(رواه البخارى ومسلم)

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال :

« إن المؤمن فى قبره لفى روضة خضراء فيرحب له قبره سبعون ذراعاً وينور له كالقمر ليلة البدر . أتدرون فِيمَ أُنزلت هذه الآية : ﴿ فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾[3] ؟ » قال : « أتدرون ما المعيشة الضنك » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال :

« عذاب الكافر فى قبره، والذى نفسى بيده إنه يُسلَّط عليه تسعة وتسعون تنيناً .. أتدرون ما التنين ؟ سبعون حية لكل حية سبع رءوس يلسعونه ويخدشونه إلى يوم القيامة » .

(رواه أبو يعلى وابن حبان فى صحيحه)

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قلت : يارسول الله : تبتلى هذه الأمة فى

---

(١) يقيض له : أى يسبب ويهيىء له .
(٢) أى الإنس والجن .
(٣) سورة طه ، الآية : ١٢٤ .

قبورها فكيف بى وأنا امرأة ضعيفة ؟ قال :

﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة﴾[1].

(رواه البزار ورواته ثقات)

وعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال :

« إن الميت إذا وضع فى قبره فإنه يسمع خفق نعالهم حين يولون مدبرين فإن كان مؤمناً كانت الصلاة عند رأسه وكان الصيام عن يمينه وكانت الزكاة عن شماله وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلاة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه فيؤتى من قبل رأسه فتقول الصلاة : ما قبلى مدخل ،ثم يؤتى عن يمينه فيقول الصيام : ما قبلى مدخل ، ثم يؤتى عن يساره فتقول الزكاة : ما قبلى مدخل ، ثم يؤتى من قبل رجليه فيقول فعل الخيرات من الصدقة والصلاة والمعروف والإحسان إلى الناس : ما قبلى مدخل ، فيقال له : اجلس فيجلس قد مثلت له الشمس وقد أذنت للغروب فيقال له : أرأيت هذا الذى كان قبلكم ما تقول فيه ؟ وماذا تشهد عليه ؟ فيقول : دعونى حتى أصلى فيقولون : إنك ستفعل ، أخبرنا عما نسألك عنه أرأيتك هذا الرجل الذى كان قبلكم ؟ ماذا تقول فيه وماذا تشهد عليه ؟ فيقول : محمد أشهد أنه رسول الله ﷺ وأنه جاء بالحق من عند الله ، فيقال له : على ذلك حييت وعلى ذلك مت وعلى ذلك تبعث إن شاء الله ، ثم يفتح له باب من أبوب الجنة فيقال له : هذا مقعدك منها وما أعد الله لك فيها ، فيزداد غبطة وسروراً ، ثم يفتح له باب من أبواب النار فيقال له : هذا مقعدك وما أعد الله لك فيها لو عصيته ، فيزداد غبطة وسروراً ، ثم يفسح له فى قبره سبعون ذراعاً وينور له فيه ويعاد الجسد لما بدىء منه فتجعل نسمته[2] فى النسم الطيب وهى طير تعلق فى شجر الجنة فذلك قوله : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ﴾ الآية . وأن الكافر إذا أتى من قبل رأسه لا يوجد شيء ، ثم أتى عن يمينه ، فلا يوجد شيء ثم أتى عن شماله فلا يوجد

---

(١) بعض الآية رقم ٢٧ من سورة إبراهيم .

(٢) النسمة : بفتح النون والسين هى الروح .

شيء ، ثم أتى من قبل رجليه فلا يوجد شيء ، فيقال له : اجلس فيجلس مرعوباً خائفاً فيقال : أرأيتك هذا الرجل الذى كان فيكم؟ ماذا تقول فيه وماذا تشهد عليه ؟ فيقول : أى رجل ـ ولا يهتدى لاسمه ، فيقال له : محمد ، فيقول : لا أدرى سمعت الناس قالوا قولاً فقلت كما قال الناس . فيقال له : على ذلك حييت وعليه مت وعليه تبعث إن شاء الله ، ثم يفتح له باب من أبواب النار فيقال له : هذا مقعدك من النار وما أعد الله لك فيها ، فيزداد حسرة وثبوراً ، ثم يفتح له باب من أبواب الجنة فيقال له : هذا مقعدك منها وماأعد الله لك فيها لو أطعته ، فيزداد حسرة وثبوراً ، ثم يضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ، فتلك المعيشة الضنك التى قال الله : ﴿ فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ » ..

(رواه الطبرانى فى الأوسط وابن حبان فى صحيحه)

وقال هانىء مولى عثمان بن عفان قال : كان عثمان رضى الله عنه إذا وقف على قبر يبكى حتى يبل لحيته فقيل له تذكر الجنة والنار فلا تبكى وتذكر القبر فتبكى ؟فقال : إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« القبر أول منزل من منازل الآخرة فإن نجا منه فما بعده أيسر منه وإن لم ينج منه فما بعده أشد » .

قال وسمعت رسول الله ﷺ يقول :

« ما رأيت منظراً قط إلا القبر أفظع منه » . (رواه الترمذى) .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ ذكر فتانا القبر فقال عمر : أترد علينا عقولنا يارسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ : **« نعم كهيئتك اليوم »** (رواه أحمد والطبرانى بإسناد جيد) .

وفى صحيح البخارى عن سمرة بن جندب قال : كان النبى ﷺ إذا صلى صلاة أقبل علينا بوجهه فقال :

« من رأى منكم الليلة رؤيا ؟ قال : فإن رأى أحد رؤيا قصها ، فيقول : ما شاء الله » فسألنا يوماً فقال : **« هل رأى أحد منكم رؤيا ؟ »**

قلنا: لا، قال: «لكنى رأيت الليلة رجلين أتيانى فأخذا بيدى وأخرجانى إلى الأرض المقدسة فإذا رجل جالس ورجل قائم بيده كَلُّوب[1] من حديد يدخله فى شدقه[2] حتى يبلغ قفاه ثم يفعل بشدقه الآخر مثل ذلك ويلتئم شدقه هذا فيعود فيصنع مثله، قلت: ما هذا؟ قالا: انطلق فانطلقنا حتى أتينا على رجل مضطجع على قفاه ورجل قائم على رأسه بصخرة أو فهر فيشدخ[3] بها رأسه، فإذا ضربه تدهده الحجر[4] فانطلق إليه ليأخذه فلا يرجع إلى هذا حتى يلتئم رأسه وعاد رأسه كما هو فعاد إليه فضربه، قلت: ماهذا؟ قالا: انطلق فانطلقنا إلى نقب مثل التنور[5] أعلاه ضيق وأسفله واسع يوقد تحته نار فإذا فيه رجال ونساء عراة فيأتيهم اللهب من تحتهم فإذا اقترب ارتفعوا حتى كادوا يخرجون فإذا خمدت رجعوا، فقلت: ماهذا؟ قالا: انطلق فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم فيه رجل قائم وعلى وسط النهر بين يديه حجارة، فأقبل الرجل الذى فى النهر فإذا أراد أن يخرج رمى الرجل بحجر فى فيه فرده حيث كان فجعل كلما جاء ليخرج رمى فى فيه بحجر فرجع كما كان فقلت: ماهذا؟ قالا: انطلق فانطلقنا حتى أتينا إلى روضة خضراء فيها شجرة عظيمة وفى أصلها شيخ وصبيان، وإذا رجل قريب من الشجرة بين يديه نار يوقدها فصعدا بى الشجرة وأدخلانى داراً لم أر قط أحسن منها فيها شيوخ وشبان ثم صعدا بى فأدخلانى داراً هى أحسن وأفضل، قلت: طوفتمانى الليلة فأخبرانى عما رأيت؟. قالا: نعم أما الذى رأيته يشق شدقه فكذاب يحدث بالكذبة، فتحمل عنه حتى تبلغ الآفاق، فيصنع به إلى يوم القيامة، والذى رأيته يشدخ رأسه فرجل علمه الله القرآن فنام عنه بالليل ولم يعمل به بالنهار يفعل به إلى يوم القيامة، وأما الذى رأيت فى النقب فهم الزناة، والذى

---

(١) الكلوب: بفتح الكاف وتشديد اللام: الحديدة المعوجة الرأس.

(٢) الشدق: جانب الفم.

(٣) الفهر: الحجر. ويشدخ: أى يكسر.

(٤) تدهده: أى تدحرج.

(٥) التنور: الفرن.

رأيته فى النهر فآكل الربا ، وأما الشيخ الذى فى أصل الشجرة فإبراهيم والصبيان حوله فأولاد الناس ، والذى يوقد النار فمالك خازن النار ، والدار الأولى دار عامة المؤمنين ، وأما هذه الدار فدار الشهداء ،وأنا جبرائيل وهذا ميكائيل ، فارفع رأسك فرفعت رأسى فإذا قصر مثل السحابة قالا : ذلك منزلك ، قلت : دعانى أدخل منزلى ، قالا : إنه بقى لك عمر لم تستكمله فلو استكملته أتيت منزلك » .

وعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال :

«إذا قبر الميت ـ أو قال أحدكم ـ أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر وللآخر النكير[1] فيقولان : ما كنت تقول فى هذا الرجل ؟ فيقول : ما كان يقول هو عبد الله ورسوله أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله فيقولان : قد كنا نعلم أنك تقول هذا ، ثم يفسح له قبره سبعون ذراعاً فى سبعين ثم ينور له فيه ثم يقال له : نم ، فيقول : أرجع إلى أهلى فأخبرهم ، فيقولان : نم ،كنومة العروس الذى لا يوقظه إلا أحب أهله إليه يبعثه الله من مضجعه ذلك ، وإن كان منافقاً قال : سمعت الناس يقولون قولاً فقلت مثله لا أدرى ، فيقولان : قد كنا نعلم أنك تقول ذلك فيقال للأرض التئمى عليه فتلتئم عليه فتختلف أضلاعه فلا يزال فيها معذباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك » .

(رواه الترمذى وابن حبان فى صحيحه)

وعن أبى هريرة أيضاً قال : شهدنا جنازة مع نبى الله ﷺ فلما فرغ من دفنها وانصرف الناس قال نبى الله ﷺ :

« إنه الآن يسمع خفق نعالكم أتاه منكر ونكير أعينهما مثل قدور النحاس وأنيابهما مثل صياصى البقر[2] وأصواتهما مثل الرعد فيجلسانه فيسألانه ما كان يعبد ومن كان نبيه فإن كان ممن يعبد الله قال : أعبد الله

---

(١) الملكان الموكلان بسؤال الميت .
(٢) أى قرونها .

ونبيه محمد ﷺ جاءنا بالبينات والهدى فآمنا به واتبعناه فذلك قول الله : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ﴾ فيقال له : على اليقين حييت وعليه مت وعليه تبعث ثم يفتح له باب إلى الجنة ويوسع له فى حفرته ، وإن كان من أهل الشك قال : لا أدرى سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته فيقال له : على الشك مت ثم تسلط عليه عقارب وتنانين ـ لو نفخ أحدهم على الدنيا ما أنبتت شيئاً ـ تنهشه ، وتؤمر الأرض فتنضم عليه حتى تختلف أضلاعه » .

(رواه الطبرانى فى الأوسط)

وفى الصحيحين عن أبى أيوب قال خرج النبى ﷺ بعدما غربت الشمس فسمع صوتاً فقال : « يهود تعذب فى قبورها » .

وفى الصحيحين أيضاً عن ابن عباس أن النبى ﷺ مر بقبرين فقال :

« إنهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير ، أما أحدهما فكان لا يستبرىء من البول ،وأما الآخر فكان يمشى بالنميمة » .

وقال الشاعر :

فهم فى بطون الأرض بعد ظهورها
محاسنهم فيها بوالٍ[1] دوائر

تخلوا عن الدنيا وما جمعوا لها
وضمتهم تحت التراب الحفائر

خلت دورهم منهم وأقوت عراصهم[2]
وساقتهم نحو المنايا المقادر

وأنت على الدنيا حريص منافس
أتدرى أيا مغرور فيم تخاطر

وإن امْرأً يسعى لدنياه جاهدا
ويذهل عن أخراه لا شك خاسر

(١) بَوالٍ : جمع بالية . (٢) أقوت . خلت . والعراص : الأماكن الخالية جمع عرصة .

◉ وقفة معَ عصرنا

كان لابد وأن نبحث فى واقعنا بين حين وآخر ، ننظر ما تجدد فيه ، ونبحث ما حققه لنا من منجزات ، وما حمله إلينا من شرور وسيئات وأثر ذلك كله على عقيدتنا ، فالبحث والفكر دائماً سبيل قويم للوصول إلى الحق .. والوصول إلى الحق هو وصول إلى الله واهب الأمن والأمان والاستقرار .

ومما لا شك فيه أن عصرنا ملىء بكثير من الأشياء المتجددة التى أفسدت على المسلمين دينهم ليس لذاتها ، ولكن لسوء استعمالها .

فالإنسان بطبيعته يحب الزينة بأنواعها ألم يقل الحق سبحانه وتعالى :

﴿ **زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المُسَوَّمة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب** ﴾[1] . ولكنه عقب بعدها فقال :

﴿ **قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد** ﴾[2] ثم وصفهم وبين حالهم فقال :

﴿ **الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار . الصابرين والصادقين و القانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار** ﴾[3] .

فمن هذه الزينة التى وجدت فى زماننا الإذاعة المرئية والمسموعة التى لم تلتزم بعد ـــ إلا ما رحم الله من البرامج الدينية القليلة ـــ بتعاليم الإسلام فبثت

---

(١) آل عمران : ١٤ .
(٢) آل عمران : ١٥ .
(٣) آل عمران : ١٦ ، ١٧ .

السموم ، وفتنت الناس بما تعرضه من الصور العارية والأغانى الهابطة ، والبرامج المسمومة ، والفكر المنحط ..

وكذلك الصحافة بما تحاول .. تحاول جهدها تزييف الحقائق ، والميل مع الرياح حيث تميل ، والنفاق المستمر من حال لآخر .. مما أوجد عدم الصدق فى الكلمة ، والخداع فى التعبير .. فتغير حال الناس وأثر ذلك على فكرهم وحياتهم .. وعقيدتهم ، وكان ما نراه واقعًا لنا !! الانحطاط العام فى الشوارع ، والسلوك غير الإسلامى فى الجامعات وميادين الأعمال ..

كل ذلك أثر على حياة الناس فيجد المؤمن صعوبة فى الالتزام .. أليس كل ذلك جديراً بأن يُلْحق بنا عذاب القبر وعذاب الآخرة ؟! إن النجاة من عذاب القبر ومن أهوال الآخرة يقتضى أن يتجرد المسلم من كل ما يخالف مبادىء الإسلام ، وأن يتجه بقلبه وقالبه إلى الواحد الديان ، وأن نرعى الله فى الكلمة التى تقال .. والصورة التى تعرض حتى نكون أمناء أوفياء فالكلمة الطيبة صدقة .. وجل خطايا ابن آدم من لسانه !

◉ ما ينجّى من عَذاب القبْر

عن عبد الرحمن بن سمرة قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن فى صُفة بالمدينة فقام علينا فقال :

« إنى رأيت البارحة عجباً ، رأيت رجلاً من أمتى أتاه ملك الموت ليقبض روحه فجاء بره بوالديه فرد ملك الموت عنه ، ورأيت رجلاً من أمتى قد احتوشته الشياطين فجاء ذكر الله فطير الشياطين عنه ، ورأيت رجلاً من أمتى قد احتوشته ملائكة العذاب فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم ... الخ الحديث » .

(رواه أبو موسى المدينى) وقال الحافظ أبو موسى هذا حديث حسن جداً .

وعن المقداد بن معديكرب قال : قال رسول الله ﷺ :

« للشهيد عند الله ست خصال ، يغفر له فى أول دفعة من دمه ، ويرى مقعده من الجنة ، ويُجار من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ويوضع على رأسه تاج الوقار ، الياقوتة منه خير من الدنيا ومافيها ، ويزوج ثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ، ويشفع فى سبعين من أقاربه » .

(رواه ابن ماجه والترمذى)

وفى سنن النسائى عن رشدين بن سعد عن رجل من أصحاب النبى ﷺ ، أن رجلاً قال : يارسول الله،ما بال المؤمنين يفتنون فى قبورهم إلا الشهيد ؟ . قال :

« كفى ببارقة السيوف[1] على رأسه فتنة » .

وفى جامع الترمذى من حديث فضالة بن عبيد عن رسول الله ﷺ قال :

« كل ميت يختم عمله إلا الذى مات مرابطاً فى سبيل الله فإنه ينمى له عمله إلى يوم القيامة ويأمن من فتنة القبر » .

قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

وفى سنن النسائى عن جامع بن شداد قال : سمعت عبد الله بن يشكر يقول : كنتُ جالساً مع سليمان بن صرد وخالد بن عرفطة ، فذكروا أن رجلاً مات ببطنه ، فإذا هما يشتهيان أن يكونا شهدا جنازته ، فقال أحدهما للآخر : ألم يقل رسول الله ﷺ :

« من قتله بطنه لم يعذب فى قبره » ؟ .

وفى الترمذى من حديث ربيعة بن يوسف ، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ :

« ما من مسلم يموت يوم الجمعة أو ليلة الجمعة إلا وقاه الله فتنة القبر » .

وقال أبو عمر بن عبد البر وصح عن رسول الله ﷺ أنه قال :

(١) بارقة السيوف : لمعانها .

« إن سورةً ثلاثين آية شفعت فى صاحبها حتى غفر له » .. ﴿ تبارك الذى بيده الملك ﴾ .

وكذلك من قرأ : ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ فى مرضه الذى يموت فيه لقوله عليه الصلاة والسلام :

« من قرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ فى مرضه الذى يموت فيه لم يفتن فى قبره وأمن من ضغطته وحملته الملائكة يوم القيامة بأكمله حتى يجيزوه من الصراط إلى الجنة » .

(أخرجه أبو نعيم فى الحلية عن عبد الله بن الشخير)

* * *

◉ الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء

عن أوس بن أوس قال : قال رسول الله ﷺ :

« إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه النفخة ، وفيه الصعقة ، فأكثروا علىَّ من الصلاة فيه ، فإن صلاتكم معروضة علىَّ » قالوا : يارسول الله وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت ؟ ـــ يقولون بليت ـــ فقال : **« إن الله عز وجل حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء »** أ . هـ[1] .

والعجب كل العجب ممن ينكرون ذلك !، ولا حرج على فضل الله على أنبيائه ، فإن كان قد كرمهم فى الدنيا ونصرهم ، فكان تكريمهم فى قبورهم أولىٰ ، والذين ينكرون الحديث أو يحاولون تضعيفه خاطئون .

فقد قال الإمام القرطبى فى هذا الحديث :

قلت : وخرجه أبو بكر البزار عن شداد بن أوس ، واتفقوا فى السند عن

---

(١) أخرجه أبو داود وابن ماجه فى سننهما واللفظ لأبى داود ، وقال ابن العربى : حديث حسن .

حسين بن على عن عبد الرحمن يزيد بن جابر ، عن أبى الأشعث الصنعانى ، فقال عن أوس بن أوس أو عن شداد بن أوس . وقال البزار : لا يعلم أحداً يرويه بهذا اللفظ إلا شداد بن أوس ، ولا نعلم له طريقاً غير هذا الطريق عن شداد بن أوس ، ولا رواه إلا حسين بن على الجعفى ، وقال أبو محمد عبد الحق ، ويقال : إن عبد الرحمن هذا هو ابن يزيد بن تميم . قاله البخارى وأبو حاتم ، وهو منكر الحديث ضعيفه .

قلت : وقد خرجه ابن ماجه من غير هذا ، فقال : حدثنا عمرو بن سواد المصرى ، حدثنا عبد الله بن وهب عن عمرو بن الحارث ، عن سعيد بن أبى هلال . عن زيد بن أيمن ، عن عبادة بن نسيء ، عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ :

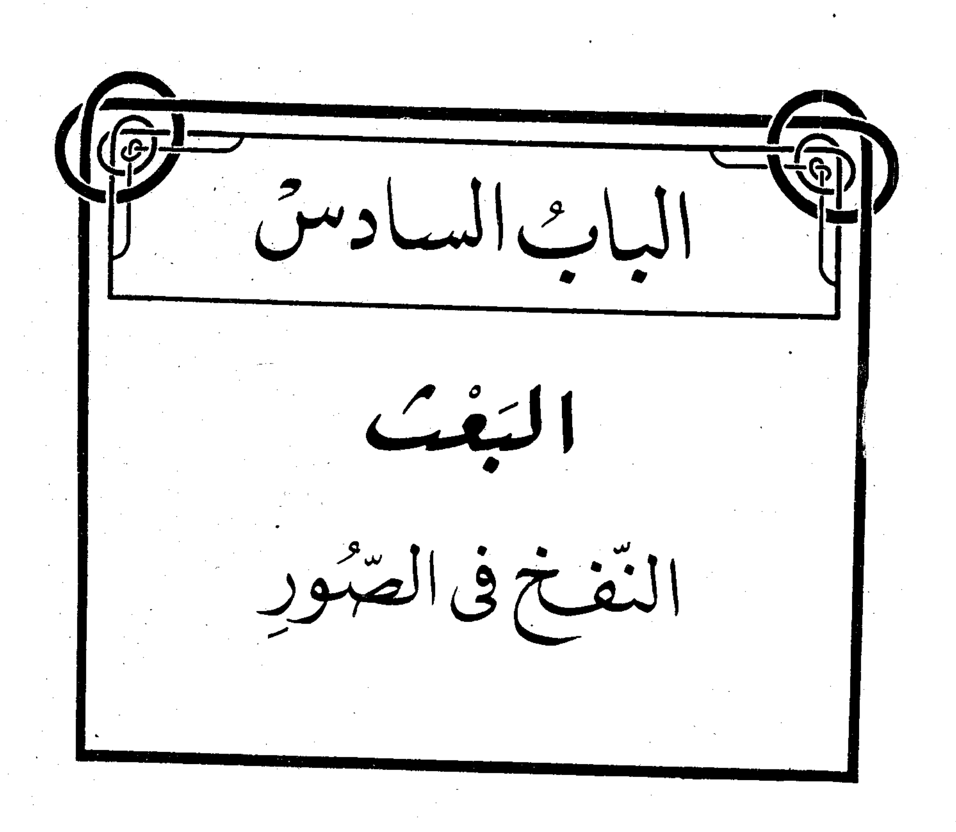
« **أكثروا علىَّ الصلاة يوم الجمعة ، فإنه يوم مشهود تشهده الملائكة وإن أحداً ممن يصلى على ؛ إلا عرضت على صلاته حتى يفرغ منها** » قال : قلت : وبعد الموت ؟ قال : « **وبعد الموت** » : « **إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء** » أ . هـ .

فنبى الله حى يرزق ، ورواه أبو جعفر الطبرى فى تهذيب الآثار من حديث سعيد بن أبى هلال عن زيد بن أيمن عن عبادة بن نسيء عن أبى الدرداء قال أبو محمد عبد الحق : وزيد بن أيمن لا أعلم رُوَاةً عنه إلا سعيد بن هلال[1] .

قلت : ومما تقدم يتبين أن الحديث حسن ، وقد روى من أكثر من طريق ، وليس كما قال البزار . وقد شهد بصحته شيخ الإسلام ابن تيمية ، وذكره فى (قواعد الأديان) فالحديث حسن والحمد لله . فالأرض لا تأكل أجساد الأنبياء[2] .

* * *

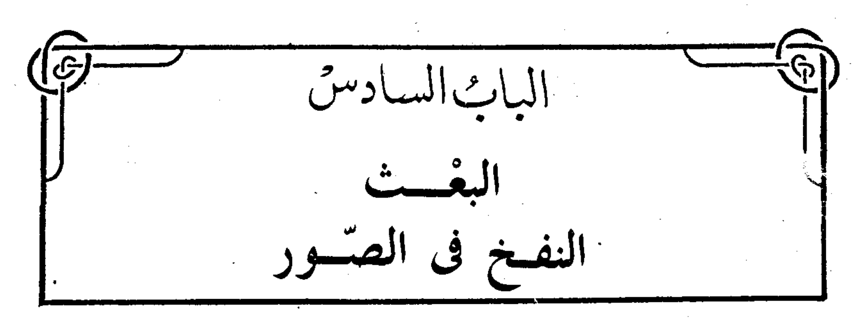
(١) التذكرة (١/٢٠٤) .
(٢) طبع دار التراث العربى .



البابُ السادسُ

البَعْث

النّفخ فى الصّورِ



الباب السادس

البعث

النفخ فى الصور

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رجل من اليهود بسوق المدينة : والذى اصطفى موسى على البشر . فرفع رجل من الأنصار يده فلطمه وقال : تقول هذا وفينا رسول الله ﷺ ؟ فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال :

« **قال الله عز وجل : ﴿ ونفخ فى الصور فصعق من فى السماوات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾**[1] .

فأكون أول من رفع رأسه فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدرى أرفع رأسه قبلى ؟! أو كان ممن استثنى الله . ومن قال : أنا خير من يونس بن متى : فقد كذب » أ . هـ[2] .

قال القرطبى :

واختلف العلماء فى المستثنى : من هو ؟ . فقيل : الملائكة ، وقيل الأنبياء ، وقيل الشهداء ، واختاره الحليمى قال : وهو مروى عن ابن عباس أن الاستثناء لأجل الشهداء ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ **أحياء عند ربهم يرزقون** ﴾[3] ، وضعف غيره من الأقوال على ما يأتى ، وقال شيخنا أبو العباس : والصحيح أنه لم يرد فى تعيينهم خبر صحيح والكل محتمل . قلت : قد ورد حديث أبى هريرة بأنهم الشهداء وهو الصحيح على ما يأتى ، وأسند النحاس فى كتاب « معانى القرآن » له ، حدثنا الحسين بن عمر الكوفى قال : حدثنا هناد بن السرى قال :

---

(١) سورة الزمر ، آية : ٦٨ .

(٢) أخرجه ابن ماجه واللفظ له ، وكذلك أخرجه الترمذى عن أبى كريب محمد بن العلا . قال الترمذى : حديث حسن صحيح وأخرجه البخارى ومسلم بمعناه .

(٣) سورة آل عمران : ١٦٩ .

حدثنا وكيع عن شعبة عمارة بن أبى حفصة ، عن حجر الهجرى ، عن سعيد ابن جبير فى قول الله عز وجل : ﴿ **إلا ما شاء الله** ﴾ قال : هم الشهداء، هم ثنية الله عز وجل، متقلدو السيوف حول العرش . وقال الحسن : طوائف الملائكة يموتون بين النفختين .

قال يحيى بن سلام فى تفسيره :

بلغنى أن آخر من يبقى منهم : جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وملك الموت ، ثم يموت جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل . ثم يقول الله عز وجل لملك الموت : مت فيموت ، وقد جاء هذا مرفوعاً من حديث أبى هريرة الطويل .

وقيل : هم حملة العرش ، وجبريل ، وميكائيل ، وملك الموت ، وقال الحليمى : من زعم أن الاستثناء لأجل حملة العرش أو جبريل وميكائيل ، وملك الموت ، أو زعم أنه لأجل الولدان والحور العين فى الجنة ، أو زعم أنه لأجل موسى ، فإن النبى ﷺ قال : «**أنا أول من تنشق عنه الأرض، فأرفع رأسى، فإذا موسى متعلق بقائمة من قوائم العرش، فلا أدرى أفاق قبلى؟! أو كان ممن استثنى الله عز وجل**» فإنه لم يصح شىء منها .

أما الأول: فإن حملة العرش ليسوا من سكان السماوات والأرض ، لأن العرش فوق السماوات كلها ، فكيف يكون حملته فى السماوات ؟

وأما جبريل ، وميكائيل ، وملك الموت : فمن الصافين المسبحين حول العرش . وإذا كان العرش فوق السماوات لم يكن الاصطفاف حوله فى السماوات .

وكذلك القول الثانى : لأن الولدان والحور فى الجنة والجنات ، وإن كان بعضها أرفع من بعض ، فإن جميعها فوق السماوات ودون العرش ، وهى بانفرادها عالم مخلوق للبقاء ، فلا شك أنها بمعزل عما خلق الله تعالى للفناء ، وصرفه إلى موسى فلا وجه له ، لأنه قد مات بالحقيقة ، فلا يموت عند نفخ الصور ثانية . ولهذا لم يعتد فى ذكر اختلاف المتأولين فى الاستثناء بقول من قال : إلا من شاء الله ، أى الذين سبق موتهم قبل نفخ الصور ، لأن الاستثناء

إنما يكون لمن يمكن دخوله فى الجملة ، فأما من لا يمكن دخوله فى الجملة فيها فلا معنى لاستثنائه منها ، والذين ماتوا قبل نفخ الصور ليسوا بغرض أن يصعقوا فلا وجه لاستثنائهم ، وهذا فى موسى موجود فلا وجه لاستثنائه .

وقال النبى ﷺ فى ذكر موسى ما يعارض الرواية الأولى ، وهو أن قال : « **الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق ، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدرى أفاق قبلى أو جوزى بصعقة الطور ؟** » أ . هـ . فظاهر الحديث أن هذه صعقة نخشى أن تكون يوم القيامة لا صعقة الموت الحادثة عن نفخ الصور .

وصرف ذكر يوم القيامة إلى أنه أراد أوائله، قيل: المعنى : أن الصور إذا نفخ فيه أخرى ؛ كنت أول من يرفع رأسه ، فإذا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدرى أفاق قبلى أو جوزى بصعقة الطور ؟ . أى فلا أدرى أبعثه قبلى كان وهباً له وتفضيلاً من هذا الوجه ، كما فضل فى الدنيا بالتكليم أو كان جزاء له بصعقة الطور ، أى قدم بعثه على بعث الأنبياء الآخرين بقدر صعقته عندما تجلى ربه للجبل إلى أن أفاق ليكون هذا جزاء له بها .

قال القرطبى معقباً : وما عدا هذا لا يثبت . قال شيخنا أحمد بن عمر : وظاهر حديث النبى ﷺ يدل على أن ذلك إنما هو بعد النفخة الثانية (نفخة البعث) ، ونص القرآن يقتضى أن ذلك الاستثناء إنما هو بعد نفخة الصعق . أ . هـ .

قلت : وهذا لا يهمنا كثيراً ، ولكن أعجب ما قرأته فى قول النبى ﷺ : « **من قال : أنا خير من يونس بن متى .. فقد كذب** » ما قاله الجوينى : أن يونس بن متى رمى بنفسه فى البحر ، فالتقمه الحوت ، وصار بها فى قعر البحر فى ظلمات ثلاث ، ونادى : ﴿ **لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين** ﴾[1] ، كما أخبر الله ، ولم يكن محمداً ﷺ حين جلس على الرفرف الأخضر ، وارتقى به صعداً حتى انتهى به إلى موضع يسمى فيه صرير الأقلام ، وناجاه ربه بما ناجاه به ، وأوحى إليه ما أوحى بأقرب إلى الله من يونس فى ظلمة البحر .

---
(١) الأنبياء : ٨٧ .

فنـــاء العبـــاد :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« **يقبض الله الأرض يوم القيامة ، يطوى السماء بيمينه ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض ؟** » أ . هـ[1] .

والحديث يدل على أن الحق تبارك وتعالى يفنى جميع خلقه ثم يقول عز وجل : ﴿ **لمن المُلك اليوم ؟** ﴾ فيجيب نفسه المقدسة بقوله : ﴿ **لله الواحد القهار** ﴾[2] ، هو وغيره من الأحاديث ، وكما نص على ذلك القرآن الكريم .

وقيل : إن المنادى بعد حشر الخلق على أرض بيضاء مثل الفضة لم يعص الله عليها على ما يأتى ﴿ **لمن المُلك اليوم ؟** ﴾ فيجيبه العباد : ﴿ **لله الواحد القهار** ﴾[3] أ . هـ .

ولكن شيخنا الإمام القرطبى يرى أن الرأى الأول أظهر ، قال : لأن المقصود إظهار انفراده بالملك عند انقطاع دعوى المدعين ، وانتساب المنتسبين ، إذ قد ذهب كل ملك وملكه ، وكل جبار ومتكبر وهو مقتضى قوله الحق :

« **أنا الملك أين ملوك الأرض** » ؟ .

وفى حديث أبى هريرة : (**ثم يأمر الله عز وجل إسرافيل فينفخ نفخة الصعق ، فيصعق من فى السماوات ومن فى الأرض إلا من شاء الله . فإذا اجتمعوا أمواتاً جاء ملك الموت إلى الجبار جل جلاله فيقول : قد مات أهل السماء والأرض إلا من شئت . فيقول الله سبحانه ــ وهو أعلم ــ من بقى ؟ فيقول : يارب بقيت أنت الحى الذى لا يموت ، وبقى حملة العرش ، وبقى جبريل وميكائيل وإسرافيل وبقيت أنا . فيقول الله عز وجل : ليمت**

---

(١) الحديث أخرجه الشيخان .

(٢) سورة غافر ، آية : ١٦ .

(٣) رواه أبو وائل بن مسعود واختاره أبو جعفر النحاس قال : والقول صحيح عن ابن مسعود وليس هو مما يأخذ بالقياس ولا بالتأويل .

جبريل وميكائيل فينطق الله عز وجل العرش ، فيقول : أى رب يموت جبريل وميكائيل ؟ فيقول : اسكت إنى كتبت الموت على كل من تحت العرش فيموتان . قال : ثم يأتى ملك الموت إلى الجبار جل جلاله ، فيقول : يارب قد مات جبريل وميكائيل . فيقول الله سبحانه ــ وهو أعلم ــ من بقى ؟ . فيقول : يارب بقيت أنت الحى الذى لا يموت وبقى حملة عرشك ، وبقيت أنا . فيقول : يمت حملة العرش .. فيموتون . فيأمر الله العرش فيقبض الصور من إسرافيل . ثم يقول : يمت إسرافيل ، فيموت ثم يأتى ملك الموت ، فيقول : يارب قد مات حملة العرش . فيقول سبحانه ــ وهو أعلم ــ من بقى ؟ فيقول : بقيت أنت الحى الذى لا يموت ، وبقيت أنا . فيقول الله : أنت خلق من خلقى خلقتك لما رأيت فمت فيموت . فإذا لم يبق إلا الله الواحد الأحد الصمد الذى لم يتخذ صاحبة ولا ولدا ﴿ لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ﴾ . فكان كما كان أولا طوى السماء كطى السجل للكتاب ، ثم قال : أنا الجبار ﴿ لمن المُلك اليوم ؟ ﴾ فلم يجبه أحد فيجيبه جل ثناؤه وتقدست أسماؤه ﴿ لله الواحد القهار ﴾ .

الحق أننى لم أقف على هذا الحديث فى الصحاح ، ولكن ذكرته لعدم وجود غيره ، ومعناه صحيح ، أما كونه عن رسول الله ﷺ صحيحاً فلا أجزم بذلك .. والله تعالى أعلم . ولكن ذكره القرطبى فى التذكرة ، والطبرى ، وعلى بن معبد ، والثعلبى .

* * *

◉ النفخ الثانى فى الصّور

قال تعالى : ﴿ **ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السماوات ومن فى الأرض** ﴾[1] .

وقال : ﴿**فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون**﴾[2] .

وقال : ﴿ **ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون** ﴾[3] .

وقال : ﴿ **يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجاً** ﴾[4] .

وسمى بالناقور ، قال تعالى : ﴿ **فإذا نقر فى الناقور** ﴾[5] .

قال المفسرون : الصور ينقر فيه مع النفخ الأول لموت الخلق ، قال تعالى مخبراً عن الكفار ﴿ **ما ينظرون** ﴾ أى ما ينتظرون كفار آخر هذه الأمة الدائنون بدين أبى جهل وأصحابه ﴿ **إلا صيحة واحدة** ﴾ — يعنى النفخة الأولى التى بها يكون هلاكهم — ﴿ **تأخذهم وهم يخصمون** ﴾ — أى يختصمون فى أسواقهم وحوائجهم .

وقوله : ﴿ **ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون** ﴾[6] . النفخة هذه هى النفخة الثانية نفخة البعث ، والصور : قرن من نور يجعل فيه الأرواح يقال فيه من الثقب على عدد أرواح الخلائق .

قال مجاهد : وهو كالبوق : ذكره البخارى ، فإذا نفخ فيه صاحب الصور النفخة الثانية ذهب كل روح إلى جسده ﴿ **فإذا هم من الأجداث** ﴾ أى القبور ﴿ **إلى ربهم ينسلون** ﴾ أى يخرجون سراعاً ، يقال نسل ينسل وينسل بالضم أيضاً : إذا أسرع فى مشيه ، فالمعنى يخرجون مسرعين .

---

(١) سورة النمل ، آية : ٨٧ .
(٢) سورة المؤمنون ، آية : ١٠١
(٣) سورة الزمر ، آية ٦٨ .
(٤) سورة النبأ ، آية ١٨ .
(٥) سورة المدثر ، آية ٨ .
(٦) سورة يس ، آية : ٥١ .

وفى الخبر : أن بين النفختين أربعين عاماً ، وقيل (الراجفة) النفخة الأولى ، (والرادفة) الثانية .

روى عن مجاهد أنه قال :

للكافرين **هجعة**[1] قبل يوم القيامة يجدون فيها طعم النوم فإذا صيح بأهل القبور ،قاموا مذعورين عجلين ينظرون ما يراد بهم لقوله تعالى :

﴿ **ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون** ﴾[2] .

وقد أخبر الله عز وجل عن الكفار أنهم يقولون ﴿ **ياويلنا من بعثنا من مرقدنا** ﴾[3] ، فيقول لهم الملائكة أو المؤمنون على اختلاف المفسرين : ﴿ **هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون** ﴾[4] ، وقيل : إن الكفار هم القائلون ﴿ **هذا ما وعد الرحمن** ﴾ ، وذلك أنهم لما بعثوا قال بعضهم لبعض ﴿ **ياويلنا من بعثنا من مرقدنا** ﴾ ؟ صدقوا الرسل لما عاينوا ما أخبروهم به ثم قالوا : ﴿ **هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون** ﴾ فكذبنا به . أقروا حين لم ينفعهم الإقرار ، ثم يؤمر بحشر الجميع إلى الموقف والحساب .

وقال عكرمة :

إن الذين يغرقون فى البحر تقتسم لحومهم الحيتان فلا يبقى منهم شىء إلا العظام فتلقيها الأمواج إلى الساحل ، فتمكث حيناً ثم تصير حائلة نخرة ، ثم تمر بها الإبل فتأكلها ، ثم تسير الإبل فتبعر ، ثم يجىء قوم فينزلون فيأخذون ذلك البعر فيوقدونه ، ثم تخمد تلك النار فيجىء الريح فيلقى ذلك الرماد على الأرض فإذا جاءت النفخة ﴿ **فإذا هم قيام ينظرون** ﴾ ، يخرج أولئك وأهل القبور سواء ﴿ **إن كانت إلا صيحة واحدة** ﴾ أى نفخة واحدة ﴿ **فإذا هم جميع لدينا محضرون** ﴾ .

قال علماؤنا رحمهم الله : فالنفخ فى الصور إنما هو سبب لخروج أهل القبور

---

(١) **هجعة : أى بعد نومة خفيفة ، لأن (التهجاع) النوم الخفيف .**
(٢) **سورة الزمر ، آية : ٦٨ .**
(٣) **سورة يس ، آية : ٥٢ .**
(٤) **سورة يس ، آية : ٥٢ .**

وغيرهم ، فيعيد الله الرفات من أبدان الأموات ، ويجمع ما تفرق منها فى البحار وبطون السباع وغيرها ، حتى تصير كهيئاتها الأولى ، ثم يجعل فيها الأرواح فتقوم الناس كلهم أحياء حتى السقط .

وروى عن عبد الله بن مسعود أنه قال :

فيقومون فيحيون تحية رجل واحد قياماً لرب العالمين ، وقوله « فيحيون » : التحية تكون فى حالين : أحدهما أن يضع يديه على ركبتيه وهو قائم ، وهذا هو المعنى الذى ورد فى بعض الأحاديث ألا تراه يقول : « قياماً لرب العالمين » ؟ ، والوجه الآخر : أن ينكب على وجهه باركاً وهذا هو الوجه المعروف عند الناس ، وقد حمله بعض الناس على قوله : **فيخرون سجداً لرب العالمين** ، فجعل السجود هو التحية وهذا هو الذى يعرفه الناس من التحية .

قال القرطبى :

قوله : ﴿ **فإذا نقر فى الناقور** ﴾ أى فى الصور ، فإذا نفخ فيه للإصعاق جمع بين النقر والنفخ لتكون الصيحة أشد وأعظم ثم يمكث الناس أربعين عاماً ، ثم ينزل الله ماء كمنى الرجال ، فتكون منه الأجسام بقدرة الله تعالى ، حتى يجعلهم بشراً كما روى فى قصة الذين يخرجون من النار ، صاروا حمماً أنهم يغتسلون من نهر بباب الجنة فينبتون نبات الحبة فى حميل السيل .

وعن ذلك عبر فى حديث أبى هريرة صحيح مسلم وغيره « فينبتون نبات البقل » فإذا تهيأت الأجسام ، وكملت ؛ نفخ فى الصور نفخة البعث من غير نقر ، لأن المراد إرسال الأرواح من ثقب الصور إلى أجسادها لا تنقيرها من أجسادها ، فالنفخة الأولى للنقير وهى نظير صوت الرعد الذى قد يقوى فيمات منه .

ونظير الصيحة : الصيحة الشديدة التى يصيحها الرجل بصبى فيفزع منه فيموت فإذا ما نفخ للبعث من غير نقر كما ذكرنا ؛ خرجت الأرواح من المجال التى هى فيه فتأتى كل روح إلى جسدها فيحييها الله .

كل ذلك فى لحظة كما قال تعالى : ﴿ **فإذا هم قيام ينظرون** ﴾[1] ، ﴿ **ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة** ﴾[2] ، وعند أهل السنة أن تلك الأجساد الدنيوية تعاد بأعيانها وأعراضها بلا خلاف بينهم ، قال بعضهم : بأوصافها ، فيعاد الوصف أيضاً كما يعاد الجسم واللون .

قال القاضى أبو بكر بن العربى : وذلك جائز فى حكم الله وقدرته وهين عليه جميعه . ولكن لم يرد بإعادة الوصف خبر .

واختلف فى عدد النفخات : فقيل ثلاث : نفخة الفزع لقوله تعالى :

﴿ **ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السماوات ، ومن فى الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين** ﴾[3] .

ونفخة الصعق ، ونفخة البعث ، لقوله تعالى :

﴿ **ونفخ فى الصور فصعق من فى السماوات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون** ﴾[4] .

وقيل : هما نفختان : ونفخة الفزع هى نفخة الصعق ، لأن الأمرين لازمان لهما أى فزعوا فزعاً ماتوا منه ، والسنة الثابتة من حديث أبى هريرة وحديث عبد الله بن عمر وغيرهما ــ وأرجو أن يكونا صحيحين ــ يدل على أنهما نفختان لا ثلاث ، قال القرطبى فى ذلك . وهو الصحيح إن شاء الله .

* * *

---

(١) سورة الزمر ، آية : ٦٨ .
(٢) سورة لقمان ، آية : ٢٨ .
(٣) سورة النمل ، آية : ٨٧ .
(٤) سورة الزمر ، آية : ٦٨ .

◉ صفَـة البعْـث

قال تعالى : ﴿ **وهو الذى يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته ، حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات ، كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون** ﴾[1] .

وقال جل شأنه : ﴿ **الله الذى يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه فى السماء كيف يشاء** ﴾ إلى قوله ﴿ **فانظر إلى آثار رحمت الله ، كيف يحيى الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيى الموتى وهو على كل شىء قدير** ﴾[2] .

وعن أبى رزين العقيلى قال : قلت : يارسول الله كيف يعيد الله الخلق ؟ وما آية ذلك فى خلقه ؟ قال :

« **أما مررت بوادى قومك جدباً ، ثم مررت به يهتز خضراً** » قال : نعم . قال : « **فتلك آية الله فى خلقه** » أ. هـ[3] .

* * *

بعث العبد على ما مات عليه :

عن جابر عن عبد الله قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« **يبعث كل عبد على ما مات عليه** » أ. هـ[4] .

وعن عبد الله بن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

---

(١) سورة الأعراف ، آية : ٥٧ .

(٢) سورة الروم ، الآيات : ٤٨ ، ٥٠ .

(٣) أخرجه أبو داود والبيهقى ، وقال القرطبى : هذا حديث صحيح موافق لنص التنزيل والحمد لله .

(٤) أخرجه مسلم .

« **إذا أراد الله بقوم عذاباً أصاب العذاب من كان فيهم ، ثم بعثوا على نياتهم** » أ. هـ[1] .

وعن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال :

« **والذى نفسى بيده لا يكلم أحد فى سبيل الله ــ والله أعلم بمن يكلم فى سبيله ــ إلا جاء يوم القيامة وجرحه يثعب دماً، اللون لون الدم ، والعرف عرف المسك** » أ. هـ[2] .

وعن عبد الله بن عمرو أنه قال : يارسول الله ، أخبرنى عن الجهاد والغزو فقال :

« **ياعبد الله إن قتلت صابراً محتسباً بعثت صابراً محتسباً** » قلت : وإن قتلت مرائياً مكاثراً على أى ؟ قال : « **قاتلت أو قتلت بعثك الله بتلك الحال** » أ. هـ[3] .

وعن ابن عباس أن رجلاً كان مع رسول الله ﷺ محرماً فوقصته ناقته فمات ، فقال رسول الله ﷺ :

« **اغسلوه بماء وسدر ، وكفنوه فى ثوبه ، ولا تمسوه بطيب ، ولا تخمروا رأسه ، فإنه يبعث يوم القيامة ملبياً** »[4] .

وعن أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ :

« **النياحة على الميت من أمر الجاهلية ، فإن النائحة إن لم تتب قبل أن تموت فإنها تبعث يوم القيامة عليها سرابيل من قطران ، ثم يُعلى عليها بدرع من لهب النار** » .

وفى رواية : « **تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب** » أ. هـ[5] .

---

(١) أخرجه البخارى .

(٢) رواه الشيخان ومالك واللفظ له .

(٣) أخرجه أبو داود .

(٤) رواه الجماعة ، والنسائى عن ابن عباس ، وقد سبق فى ذكر غسل المحرم .

(٥) أخرجه ابن ماجه واللفظ له والرواية أخرجها مسلم ، وكذلك أخرجه النسائى بلفظ آخر .

عندما يقوم المؤمن من قبره :

قال القرطبى :

من حديث جابر مرفوعاً : (فإذا قامت الساعة انحط عليه ملك الحسنات وملك السيئات فأنشطا كتاباً معقوداً فى عنقه . ثم حضر معه واحد سائق ، والآخر شهيد) ذكره أبو نعيم .

وذكر أبو نعيم أيضاً عن الثابت البنانى أنه قرأ : حم السجدة حتى إذا بلغ ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة** ﴾[1] .

ووقف فقال : (بلغنا أن العبد المؤمن حين يبعث من قبره يتلقاه الملكان اللذان كانا معه فى الدنيا فيقولان له : لا تخف ولا تحزن وأبشر بالجنة التى كنت توعد . قال : فأمن الله خوفه ، وأقر الله عينه ، فما عظيمة تغشى الناس يوم القيامة ، فالمؤمن فى قرة عين لما هداه الله له ، ولما كان يعمل له فى الدنيا)[2] .

* * *

◉ أين يكون النّاسُ يَوم تُبدّل الأرض غير الأرض والسّموات ؟

عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال : كنت قائماً عند رسول الله ﷺ فجاء حبر من أحبار اليهود فقال : السلام عليكم يا محمد ، وذكر الحديث وفيه : فقال اليهودى : أين يكون الناس ﴿ **يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات** ﴾[3] ؟ فقال رسول الله ﷺ : « **هم فى الظلمة دون الجسر** » أ . هـ[4] .

---

(١) سورة فصلت ، الآية : ٣٠ .
(٢) التذكرة (١ـ ٢٣٢) .
(٣) سورة إبراهيم ، الآية : ٤٨
(٤) أخرجه مسلم .

وعن عائشة قالت : سُئل رسول الله ﷺ عن قوله تعالى ﴿ **يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات** ﴾ فأين يكون الناس يومئذ ؟ قال : « **على الصراط** » أ. هـ[1] .

وعنها أيضاً قالت : يارسول الله ﴿ **والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه** ﴾ فأين يكون المؤمنون يومئذ ؟ قال : « **على الصراط يا عائشة** » أ. هـ[2] .

قال ابن عباس وابن مسعود :

تبدل الأرض أرضاً بيضاء كالفضة لم يسفك عليها دم حرام ، ولم يعمل عليها خطيئة قط ، وقال ابن مسعود أيضاً : تبدل الأرض ناراً والجنة من ورائها يرى أكوابها وكواعبها . وقال أبو الجلد جيلان بن فروة : إنى لأجد فيما أقرأ من كتب الله أن الأرض تشعل ناراً يوم القيامة .

وقال على رضى الله عنه :

تبدل الأرض غير الأرض فضة ، والسماء ذهباً ، وقال جابر : سألت أبا جعفر محمد بن على عن قول الله تعالى ﴿ **يوم تبدل الأرض غير الأرض** ﴾ قال : تبدل خبزة بيضاء يأكل منها الخلق يوم القيامة ثم قرأ ﴿ **وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام** ﴾[3] .

وقال سعيد بن جبير ومحمد بن كعب : تبدل الأرض خبزة بيضاء يأكل المؤمن من تحت قدميه ، قال القرطبى معلقاً :

وهذا المعنى الذى قاله سعيد بن جبير ومحمد بن كعب مروى فى الصحيح ، وإليه ذهب ابن برجان فى كتاب الإرشاد له . وأن المؤمن يطعم يومئذ من بين رجليه ويشرب من الحوض فهذه أقوال الصحابة والتابعين دالة على ما ذكرناه .

---

(١) أخرجه مسلم وابن ماجه .

(٢) أخرجه الترمذى وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٣) سورة الأنبياء ، آية : ٨ .

وأما تبديل السماء فقيل تكوير شمسها وقمرها وتناثر نجومها . قال ابن عباس وقيل : اختلاف أحوالها فتارة كالمهل ، وتارة كالدهان . حكاه ابن الأنبارى ، وقال كعب :

تصير السماء دخاناً ، وتصير البحار نيراناً ، وقيل تبديلها : أن تطوى كطى السجل للكتاب ، وذكر أبو الحسن شبيب بن إبراهيم بن حيدرة فى كتاب الإفصاح له :

أنه لا تعارض بين هذه الآثار ، وأن الأرض والسماوات تبدل كرتين إحداهما : هذه الأولى وأنه سبحانه يغير صفاتها قبل نفخة الصعق فتنتثر أولاً كواكبها ، وتكشف شمسها وقمرها وتصير كالمهل ، ثم تكشط عن رءوسهم ، ثم تسير الجبال ثم تموج الأرض ، ثم تصير البحار نيراناً ، ثم تنشق الأرض ، ومن قطر إلى قطر فتصير الهيئة غير الهيئة والبنية غير البنية . ثم إذا نفخ فى الصور نفخة الصعق طويت السماء ودحيت الأرض . وبدت السماء سماء أخرى ، وهو قوله ﴿ **وأشرقت الأرض بنور ربها** ﴾[1] .

وبدأت الأرض : تُمد مد الأديم العكاظى ، وأعيدت كما كانت فيها القبور ، والبشر على ظهورها وفى بطنها . وتبدل أيضاً ثانياً — وذلك إذا وقفوا فى المحشر فتبدل لهم الأرض التى يقال لها (الساهرة) يحاسبون عليها وهى أرض عفراء وهى البيضاء فضة لم يسفك عليها دم حرام قط ، ولا جرى عليها ظلم قط ، وحينئذ يقوم الناس على الصراط ، وهو لا يسع جميع الخلائق وإن كان قد روى أن مسافته ألف سنة صعوداً وألف سنة هبوطاً وألف سنة استواء ، ولكن الخلق أكثر من ذلك فيقوم من فضل الله على الصراط ، على متن جهنم ، وهى كإهالة جامدة وهى الأرض التى قال عبد الله : إنها أرض من نار يعرق فيها البشر ، فإذا حوسب الناس عليها أعنى الأرض المسماة بالساهرة ، وجاوزوا الصراط ، وجعل أهل الجنان من وراء الصراط ، وأهل النيران فى النار وقام الناس على حياض الأنبياء يشربون بدلت الأرض كقرصة النقى ،

---

(١) سورة الزمر ، آية : ٦٩ .

فأكلوا من تحت أرجلهم ، وعند دخولهم الجنة كانت خبزة واحدة أى قرصاً واحداً يأكل منه جميع الخلق ممن دخل الجنة إدامهم زيادة ثور فى الجنة ، وزيادة كبد الحوت[1] .

وخلاصة الأمر : أنه لاشك ــ كما نص القرآن ــ أن الأرض تتبدل وتزال ويخلق الله أرضاً أخرى يكون عليها الناس بعد كونهم على الجسر وهو الصراط .. والله تعالى أعلم .

وأفضل ما سمعته نظماً فى هذا التبدل والتغير ما قاله القائل :

مثل لنفسك أيها المغرور ... يوم القيامة والسماء تمور
إذ كورت شمس النهار وأدنيت ... حتى على رأس العباد تسير
وإذا النجوم تساقطت وتناثرت ... وتبدلت بعد الضياء بدور
وإذا البحار تفجرت من خوفها ... ورأيتها مثل الجحيم تفور
وإذا العشار تعطلت وتخربت ... خلت الديار فما بها معمور
وإذا الوحوش لدى القيامة حشرت ... وتقول للأملاك أين نسير
وإذا تقاة المسلمين تزوجت ... من حور عين زانهن شعور
وإذا الوئيدة سوئلت عن شأنها ... وبأى ذنب قتلها ميسور
وإذا الجليل طوى السما بيمينه ... طى السجل كتابه المنشور
وإذا الصحائف عند ذاك تساقطت ... تبدى لنا يوم القصاص أمور
وإذا الصحائف نشرت فتطايرت ... وتهتكت للمؤمنين ستور
وإذا السماء تكشطت عن أهلها ... ورأيت أفلاك السماء تدور
وإذا الجحيم تسعرت نيرانها ... فلها على أهل الذنوب زفير
وإذا الجنان تزخرفت وتطيبت ... لفتى على طول البلاء صبور
وإذا الجنين بأمه متعلق ... يخشى القصاص وقلبه مذعور
هذا بلا ذنب يخاف جناية ... كيف المصر على الذنوب يحور

---

(١) وتؤكد ذلك روايات صحيحة ذكرها ابن القيم فى « فتاوى رسول الله » ﷺ فليرجع إليها من يشاء ــ ط مكتبة القرآن .

◉ أهـــوالُ المـوقـف

قال الحارث المحاسبى :

يحشر الله الأمم من الإنس والجن عراة أذلاء قد نزع الملك من ملوك الأرض ، ولزمهم الصغار بعد عتوهم ، والذلة بعد تجبرهم على عباد الله فى أرضه ، ثم أقبلت الوحوش من أماكنها منكسة رءوسها ؛ بعد توحشها من الخلائق وانفرادها ذليلة ؛ من هول يوم النشور من غير ريبة ولا خطية أصابتها حتى وقفت من وراء الخلق بالذلة والانكسار لذلك الجبار .

وأقبلت الشياطين بعد تمردها وعتوها خاضعة ذليلة للعرض على الملك الديان ، حتى إذا تكاملت عدة أهل الأرض ، من إنسها ، وجنها ، وشياطينها ، ووحوشها ، وسباعها ، وأنعامها ، وهوامها ، تناثرت نجوم السماء من فوقهم وطمست الشمس والقمر ، فأظلما عليهم ومارت سماء الدنيا من فوقهم فدارت من فوقهم ، لعظمهم فوق رءوسهم جميعهم خمسمائة عام ، فيا هول ، صوت انشقاقها فى سمعهم وتمزقت ، وتفطرت ، لهول يوم القيامة من عظم يوم القيامة ثم ذابت حتى صارت مثل الفضة المذابة كما قال الجبار تبارك وتعالى :

﴿ **فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان** ﴾[1] .

وقال : ﴿ **يوم تكون السماء كالمهل * وتكون الجبال كالعهن** ﴾[2] أى كالصوف المنفوش وهو أضعف الصوف وهبطت الملائكة من حافاتها إلى الأرض بالتقديس لربها فتوهم انحدارهم من السماء لعظم أجسامهم وكثر أخطارهم وهول أصواتهم وشدة وقوفهم من خوف ربهم ، فتوهم فزعك حينئذ وفزع الخلائق ، لنزولهم مخافة أن يكونوا قد أمروا بهم فأخذوا مصافهم محدقين

---

(١) سورة الرحمن ، آية : ٣٧ .

(٢) سورة المعارج ، آية : ٨ ، ٩ .

بالخلائق منكسى رءوسهم، لعظيم هول يومهم قد تسربلوا أجنحتهم ، ونكسوا رءوسهم بالذلة والخضوع لربهم .

وكذلك ملائكة كل سماء إلى السماء السابقة ، قد أضعف أهل كل سماء على أهل السماء الذين قبلهم، فى العدة ، وعظم الأجسام ، والأصوات ، حتى إذا وافى الموقف أهل السماوات السبع والأرضين السبع ـ كسيت الشمس حر عشر سنين ، ثم أدنيت من الخلائق قاب قوسين فلا ظل فى ذلك اليوم إلا ظل عرش الرحمن فمن بين مستظل بظل العرش، وبين مضح بحر الشمس قد صهرته ، واشتد فيها كربه ، وأقلقته وقد ازدحمت الأمم ، وتضايقت ودفع بعضها بعضاً ، واختلفت الأقدام وانقطعت الأعناق من العطش قد اجتمع عليهم فى مقامهم حر الشمس مع وهج أنفاسهم وتزاحم أجسامهم ، ففاض العرق منهم على وجه الأرض ثم على أقدامهم ثم على قدر مراتبهم ومنازلهم عند ربهم من السعادة والشقاء ، فمنهم من يبلغ العرق منكبيه وحقويه[1] ، ومنهم إلى شحمة أذنيه ، ومنهم من قد ألجمه العرق فكاد أن يغيب فيه . أ . هـ .

وأخرج أبو بكر بن أبى شيبة عن أبى معاوية عن عاصم عن أبى عثمان عن سلمان قال :

تعطى الشمس يوم القيامة حر عشر سنين ثم تدنى من جماجم الناس حتى تكون قاب قوسين قال : فيعرقون حتى يرشح العرق فى الأرض قامة، ثم يرتفع حتى يغرغر الرجل .

قال : حتى يقول الرجل غرغر فإذا رأوا ما فيهم قال بعضهم لبعض : ألا ترون ما أنتم فيه ائتوا أباكم آدم فيشفع لكم .. الحديث .

● وعن المقداد بن الأسود رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل » أ . هـ[2] .

---

(١) حقويه : بالفتح : إزاره ، والحقو أيضاً : الخصر وشد الإزار .

(٢) أخرجه مسلم .

قال سليم بن عامر وهو من رجال سند الحديث : فوالله ما أدرى ما يعنى بالميل أمسافة الأرض ، أو الميل الذى تكحل به العين ؟ قال : فيكون الناس على قدر أعمالهم فى العرق فمنهم من يكون إلى كعبيه ، ومنهم من يكون إلى ركبتيه ، ومنهم من يكون إلى حقويه ، ومنهم من يلجمه إلجاماً ، قال : وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال :

« **إن العرق يوم القيامة ليذهب فى الأرض سبعين باعاً وإنه ليبلغ إلى أفواه الناس أو آذانهم . يشك ثور أيهما** » أ . هـ[1] .

● وعن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ :

« **﴿ يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ قال : يوم يقوم أحدهم فى رشح إلى نصف أذنيه** » أ . هـ[2] .

قال القرطبى :

ظاهر ما روى أن الشمس لا يضر حرها مؤمناً ولا مؤمنة للعموم فى المؤمنين ، كذلك لحديث المقداد ، ودائماً المراد لا يضر حرها مؤمناً كامل الإيمان ، أو من استظل بظل عرش الرحمن ، كما فى الحديث الصحيح : « **سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله** » . وكذلك ما جاء أن المرء فى ظل صدقته ، وكذلك الأعمال الصالحة أصحابها فى ظلها إن شاء الله ، وكل ذلك من ظل العرش ، والله أعلم .

وأما غير هؤلاء فمتفاوتون فى العرق على ما دل عليه حديث مسلم ، قال ابن العربى : وكل واحد يقوم عرقه معه فيغرق فيه إلى أنصاف ساقيه وإلى جانبيه مثلاً ، ومنه من يبلغ كعبيه من الشمال ، ومن يبلغ ركبتيه ومن أمامه ومن يكون عرقه إلى نصفه ومن خلفه ومن يبلغ العرق صدره ، وهذا بخلاف المعتاد فى الدنيا ، فإن الجماعة إذا وقفوا فى الدنيا أخذهم الماء أخذاً واحداً ولا يتفاوتون .

---

(١) أخرجه الشيخان .

(٢) أخرجه البخارى والترمذى وقال : حديث صحيح مرفوعاً وموقوفاً .

◉ ما ينجّـى من أهوال الموقف

عن سعيد بن المسيب عن عبد الرحمن بن سمرة رضى الله عنه قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم ونحن فى مسجد المدينة فقال :

« إنى رأيت البارحة عجباً ، رأيت رجلاً من أمتى جاءه ملك الموت ليقبض روحه فجاءه بره بوالديه فرده عنه ، ورأيت رجلاً من أمتى قد بسط عليه عذاب القبر فجاءه وضوؤه فاستنقذه من ذلك ، ورأيت رجلاً من أمتى قد احتوشته الشياطين فجاءه ذكر الله فخلصه من بينهم ، ورأيت رجلاً من أمتى قد احتوشته ملائكة العذاب فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم ، ورأيت رجلاً من أمتى يلهث عطشاً كلما ورد حوضاً منع منه فجاءه صيامه فسقاه ، وأرواه . ورأيت رجلاً من أمتى والنبيون قعود حلقاً كلما دنا لحلقةٍ طردوه فجاءه اغتساله من الجنابة فأخذ بيده وأقعده بجنبى ، ورأيت رجلاً من أمتى من بين يديه ظلمة ، ومن خلفه ظلمة ، وعن يمينه ظلمة وعن شماله ظلمة ، ومن فوقه ظلمة ، ومن تحته ظلمة ، فهو متحير فيها ، فجاءته حجته وعمرته ، فاستخرجاه من الظلمة ، وأدخلاه فى النور ، ورأيت رجلاً من أمتى يكلم المؤمنين فلا يكلمونه فجاءته صلة الرحم فقالت : يامعشر المؤمنين .. كلموه فكلموه . ورأيت رجلاً من أمتى يتقى شر النار ووهجها بيده عن وجهه فجاءته صدقته فصارت ستراً على وجهه وظلاً على رأسه ، ورأيت رجلاً من أمتى قد أخذته الزبانية من كل مكان فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فاستنقذه من أيديهم وأخلاه مع ملائكة الرحمة . ورأيت رجلاً من أمتى جاثياً على ركبتيه بينه وبين الله حجاب ، فجاءه حسن خلقه فأخذه بيده فأدخله على الله ، ورأيت رجلاً من أمتى قد هوت صحيفته من قبل شماله ، فجاءه خوفه من الله تعالى ، فأخذ صحيفته فجعلها فى يمينه . ورأيت رجلاً من أمتى قد خف ميزانه فجاءته أفراطه[1] فثقلوا ميزانه .

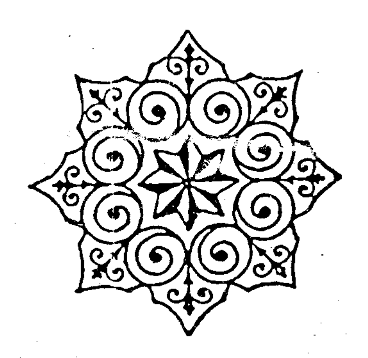
---

(١) أفراطه : أولاده الذين ماتوا صغاراً .

ورأيت رجلاً من أمتي قائماً على شفير جهنم ، فجاءه وجله من الله فاستنقذه من ذلك ومضى . ورأيت رجلاً من أمتي هوى في النار فجاءته دموعه التي بكى من خشية الله في الدنيا فاستخرجته من النار . ورأيت رجلاً من أمتي قائماً على الصراط يرعد كما ترعد السعفة . فجاءه حسن ظنه بالله فسكن رعده ومضى . ورأيت رجلاً من أمتي على الصراط يزحف أحياناً ويحبو أحياناً ، فجاءته صلاته عليَّ فأخذته بيده وأقامته ومضى على الصراط . ورأيت رجلاً من أمتي انتهى إلى أبواب الجنة فغلقت الأبواب دونه ، فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله ففتحت له الأبواب وأدخلته الجنة » أ . هـ[1] .

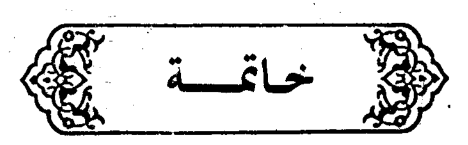
والمتبين من الحديث أن أفعال البر كلها منجية حتى الفرائض ، فعليك أخي إذا أردت أن تنجو من حر جهنم ، وسمومها ، ومن هول الموقف ؛ ألا تدع براً مهما قَلّ ، ولا ترفض حسنة مهما صغرت ، وان تبعد بنفسك عن الشر وأهله ، والله نسأله أن يرزقنا الثبات والصبر والمضى على طريق الحق .





---

(١) أخرجه الترمذى فى نوادر الأصول



خاتمة

هذه هى حَقيقة الدُّنيَا وأباطيل من غرتهم !!

حمى الله تعالى أولياءه من الدنيا وصانهم عنها ورغب بهم عنها تكريماً لهم وتطهيراً عن أدناسها ورفعة من دناءتها، وذمها لهم وأخبرهم بهوانها عليه وسقوط قدرها عنده وأعلمهم أن بسطها فتنة، وأنها سبب الطغيان، والفساد فى الأرض وأنها متاع الغرور، وذم محبيها ومؤثريها وأخبر أن من أرادها وأراد زينتها وحرثها، فليس له فى الآخرة من نصيب، وأخبر أن بسطها فتنة وابتلاء لا كرامة ومحبة، وأن إمداد أهلها بها ليس مسارعة لهم فى الخيرات وأنها لا تقرب إليه ولا تزلف لديه، وأنه لولا تتابع الناس فى الكفر لأعطى الكفار منها فوق مناهم ووسعها عليهم أعظم التوسعة، وأخبر أنه زينها لأعدائه ولضعفاء العقول، الذين لا نصيب لهم فى الآخرة، ونهى رسول الله ﷺ عن مد عينيه إليها وإلى ما متع به أهلها، وذم من أذهب طيباته فيها واستمتع بها. وقال لنبيه: ﴿ **ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون** ﴾[1] وفى هذا تعزية لما منعه أولياءه من التمتع بالدنيا وكثرة الأكل فيها وتأديب لمن بسط له فيها ألا يطغى ولا يعطى نفسه شهواتها ولا يتمتع بها، وذم سبحانه محبيها المفتخرين بها المكاثرين بها الظانين أن الفضل والكرامة فى سعتها وبسطها فأكذبهم الله سبحانه وتعالى، وأخبر أنه ليس كما قالوا ولا توهموا، ومثلها لعباده بالأمثلة التى تدعو كل لبيب عاقل إلى الزهد فيها وعدم الوثوق بها، والركو إليها، فأحضر صورتها وحقيقتها فى قلوبهم بما ضربه لها مثلاً كماء أنزله من السماء فخالط نبات الأرض فلما أخذت به الأرض زخرفها وتزينت بأنواع النبات أتاها أمره فجعل تلك الزينة يبساً هشيماً تذوره الرياح كأن لم يكن قط منه شئ.

---

(١) سورة الحجر، الآية : ٣ .

وأخبر سبحانه عن فنائها، وسرعة انقضائها، وأنه إذا عاين العبد الآخرة فكأنه لبث فيها ساعة من نهار، أو يوماً، أو بعض يوم، ونهى سبحانه وتعالى عباده أن يغتروا بها وأخبرهم أنها لهو، ولعب، وزينة، وتفاخر، وتكاثر، ومتاع غرور، وطريق ومعبر إلى الآخرة. وأنها عرض عاجل لا بقاء له لم يذكر مريدها بخير قط بل حيث ذكره ذمه. وأخبر أن مريدها مخالف ربه تعالى فى إرادته. فالله يريد شيئاً ومريد الدنيا يريد خلافه. فهو مخالف لربه فى إرادته.

وأخبر سبحانه وتعالى عن أهل النار أنهم إنما دخلوها بسبب غرور الدنيا وأمانيها لهم، وهذا كله تزهيد لهم منه سبحانه وتعالى فيها وترغيب فى التقلل منها ما أمكن.

وقد عرض الله مفاتيح كنوزها على أحب الخلق إليه وأكرمهم عليه عبده ورسوله محمد ﷺ فلم يردها ولم يخترها، ولو آثرها وأرادها لكان أشكر الخلق بما أخذه منها وأنفقه كله فى مرضاة الله وسبيله، لكنه اختار التقلل منها وطبع على شدة العيش فيها وقال:

« بل أجوع يوماً وأشبع يوماً، فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك وإذا شبعت حمدتك وشكرتك ».

عن محمود بن لبيد رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

« إن الله تبارك وتعالى يحمى عبده المؤمن من الدنيا وهو يحبه كما تحبون مرضاكم وتمنعونهم الطعام والشراب تخافون عليهم ».

وعن زيد بن أرقم رضى الله عنه قال: كنا مع أبى بكر الصديق رضى الله عنه فدعا بشراب فأتى بماء وعسل فلما أدناه من فيه بكى وبكى حتى أبكى أصحابه فسكتوا وما سكت. ثم عاد وبكى حتى ظنوا أنهم لم يقدروا على مسألته قال: ثم مسح عينيه، فقالوا: يا خليفة رسول الله ما أبكاك؟ فقال: كنت مع رسول الله ﷺ فرأيته يدفع عن نفسه شيئاً ولم أر معه أحداً فقلت: يارسول الله ما الذى تدفع عن نفسك؟ فقال: « **هذه الدنيا مثلت لى، فقلت لها: إليك عنى، ثم رجعت فقالت: إنك أن أفْلَتَّ منى فلن يفلت منى من بعدك** ».

وعن عبد الرحمن بن عوف أن أبا بكر رضى الله عنه قال فى مرضه الذى مات فيه : إنى وليت أمركم . وإنى لست بخيركم وكلكم ورم أنفه من ذلك أن يكون هذا الأمر له ، وذلك لما رأيت الدنيا قد أقبلت ولم تقبل حتى يتخذوا نضائد الحرير وستور الديباج ، وحتى يألم أحدكم من الاضطجاع على الصوف كما يألم من الاضطجاع على الحسك والسعدان ، ثم أنتم أول ضال بالناس تصفقون يميناً وشمالاً ما هذا الطريق أخطأت إنما هو البحر أو الفجر والله لأن يقدم أحدكم فتضرب عنقه فى غير حد ، خير له من أن يخوض غمرات الدنيا .

ودخل رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون وهو فى الموت فأكب عليه يقبله ويقول :

« **رحمك الله يا عثمان ما أصبت من الدنيا ولا أصابت منك ، فغبطه بذلك** » .

وكان يقول : « **الزهد فى الدنيا يريح القلب والبدن ، والرغبة فى الدنيا تطيل الهموم والحزن** » .

وفى حديث مناجاة موسى الذى رواه الإمام أحمد فى كتاب الزهد عن عبد الصمد بن معقل قال : سمعت وهب بن منبه فذكره وفيه :

(ولا تعجبكما زينته ولا ما متع به ولا تمُدَّا إلى ذلك أعينكما فإنها زهره الحياة الدنيا وزينة المترفين ، وإنى لو شئت أن أزينكما من الدنيا بزينة يعلم فرعون حين ينظر إليها أن مقدرته تعجز عن مثل ما أوتيتما ؛ فعلت ، ولكنى أرغب بكما عن نعيمها ذلك وأزويه عنكما ، وكذلك أفعل بأوليائى ، وقديماً ما أخرت لهم فى ذلك فإنى لأذودهم عن نعيمها ورخائها كما يذود الراعى الشفيق إبله عن مبارك الغرة وما ذلك لهوانهم علىَّ ، ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتى سالماً موفراً لم تكمله الدنيا ولم يطغه الهوى ، واعلم أنه لم يتزين لى العباد بزينة هى أبلغ من الزهد فى الدنيا فإنها زينة المتقين عليهم منها لباس يعرفون به من السكينة والخشوع ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود أولئك أوليائى حقاً ، فإذا لقيتهم فاخفض لهم جناحك وذلل لهم قلبك ولسانك .. وذكر الحديث) .

وقال الحواريون لعيسى : من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ؟ قال :

(الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها ، والذين نظروا إلى آجل الدنيا حين نظر الناس إلى عاجلها ، فأمنوا منها ما يخشون أن يميتهم ، وتركوا ما علموا أن سيتركهم فصار استكثارهم منها استقلالاً ، وذكرهم إياها فواتاً ، وفرحهم مما أصابوا منها حزناً ، فما عارضهم من نائلها رفضوه ، وما عارضهم من رفعتها بغير الحق وضعوه ، خلقت الدنيا عندهم فليسوا يجددونها ، وخربت بينهم فليسوا يعمرونها ، وماتت فى صدورهم فليسوا يحيونها ، ويهدمونها فيبنون بها آخرتهم ، ويبيعونها فيشترون بها ما بقى لهم ، رفضوها فكانوا بها هم الفرحين ، ونظروا إلى أهلها صرعى قد حلت بهم المثلات فأحيوا ذكر الموت وأماتوا ذكر الحياة يحبون الله ويحبون ذكره ، ويستضيئون بنوره ويضيئون به ، لهم خير عجيب ، وبهم نطق الكتاب ، وبه نطقوا ، وبهم أتانا الكتاب وبه عملوا ، ليسوا يرون مأملاً مع ما نالوا ، ولا أماناً دون ما يرجون ، ولا خوفاً دون ما يحذرون) .

وقيل أيضاً لعيسى ابن مريم : يارسول الله ، لو اتخذت حماراً تركبه لحاجتك قال :

(أنا أكرم على الله من أن يجعل لى شيئاً يشغلنى به ، وقال : اجعلوا كنوزكم فى السماء ، فإن قلب المرء عند كنزه ، وقال : اتقوا فضول الدنيا فإن فضول الدنيا عند الله رجز ، وقال : يا بنى إسرائيل اجعلوا بيوتكم كمنازل الأضياف فما لكم فى العالم من منزل إن أنتم إلا عابرى سبيل ، وقال : يامعشر الحواريين أيكم يستطيع أن يبنى على موج البحر داراً ؟ قالوا : ياروح الله من يقدر على ذلك ؟ قال : إياكم والدنيا فلا تتخذوها قراراً ، وقال : أكل خبز البر ، وشرب ماء عذب ، ونوم على المزابل مع الكلاب كثير لمن يريد أن يرث الفردوس ، وقال : حلاوة الدنيا مرارة الآخرة ، ومرارة الدنيا حلاوة الآخرة ، وقال : يا بنى إسرائيل تهاونوا بالدنيا

تهن عليكم ، وأهينوا الدنيا تكرم عليكم الآخرة ، ولا تكرموا الدنيا تهن عليكم الآخرة ، فإن الدنيا ليست بأهل الكرامة ، وكل يوم تدعو إلى الفتنة والخسارة) .

وقال يحيى بن معاذ الرازى : الدنيا خمر الشيطان من سكر منها فلا يفيق إلا فى عسكر الموتى نادماً بين الخاسرين .

وقال يونس بن عبد الأعلى : ما شبهت الدنيا إلا كرجل نام فرأى فى منامه ما يكره وما يحب فبينما هو كذلك انتبه .

وقال ابن أبى الدنيا عن ليث قال : رأى عيسى ابن مريم الدنيا فى صورة عجوز عليها من كل زينة ، **قال : كم تزوجت ؟ قالت : لا أحصيهم . قال : فكلهم مات عنك أو كلهم طلقك ؟ قالت : بل كلهم قتلته ، فقال عيسى : بؤساً لأزواجك الباقين ، كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين تهلكينهم واحداً واحداً ولا يكونون منك على حذر ؟!**

أرى أشقياء الناس لا يسأمونها ... على أنهم فيها عراة وجُوَّعُ
أراها وإن كانت تحب فإنها ... «سحابة صيف عن قليل تقشع»

وأشبه الأشياء بالدنيا الظل تحسب له حقيقة ثابتة وهو فى تقلص وانقباض فتتبعه لتدركه فلا تلحقه . وأشبه الأشياء بها السراب يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب . وأشبه الأشياء بها المنام يرى فيه العبد ما يحب وما يكره فإذا استيقظ؛ علم أن ذلك لا حقيقة له ، وأشبه الأشياء بها عجوز شوهاء قبيحة المنظر والخبر . غدارة بالأزواج تزينت للخطاب بكل زينة وسترت كل قبيح فاغتر بها من لم يجاوز بصره ظاهرها فطلب النكاح ، فقالت : لا مهر إلا نقد الآخرة فإننا ضرتان واجتماعنا غير مأذون فيه ولا مستباح ، فآثر الخُطَّابُ العاجلةَ وقالوا : ما على واصل حبيبته من جناح ، فلما كشفت قناعها وحل إزارها إذا كل آفة وبلية . فمنهم من طلق واستراح . ومنهم من اختار المقام فما استتمت ليلة عرسه إلا بالعويل والصياح تالله لقد أذن مؤذنها على رءوس الخلائق بحى على

غير الفلاح ، فقام المجتهدون والمصلون لها فواصلوا فى طلبها الغدو بالرواح وسروا ليلهم فلم يحمد القوم السرى . وعند الصباح طاروا فى صيدها فما رجع أحد منهم إلا وهو مكسور الجناح ، فوقعوا فى شبكتها فأسلمتهم للذباح .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما : يؤتى بالدنيا يوم القيامة فى صورة عجوز شمطاء زرقاء أنيابها بادية مشوه خلقها ، فتشرف على الخلائق فيقال : أتعرفون هذه ؟ فيقولون : نعوذ بالله من معرفة هذه . فيقال : هذه الدنيا التى تشاجرتم عليها بها تقاطعتم الأرحام ، وبها تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم، ثم يقذف بها فى جنهم فتنادى : يارب، أين أتباعى وأشياعى ؟ فيقول الله عز وجل : ألحقوا بها أتباعها وأشياعها .

ووصف على رضى الله عنه ، الدنيا فقال : دار من صح فيها حرم ، ومن سقم فيها ندم ، ومن افتقر فيها حزن ، ومن استغنى فيها فتن ، وفى حلالها الحساب ، وفى حرامها العذاب .

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : « الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له » .

وكتب الحسن إلى غمر بن عبد العزيز : أما بعد : فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار إقامة . وإنما نزل آدم إليها عقوبة فاحذرها يا أمير المؤمنين فإن الزاد منها تركها ، والغناء فيها فقرها ، لها فى كل حال قتيل ، تذل من أعزها وتفقر من جمعها ، هى كالسهم يأكله من لا يعرفه وفيه حتفه ، فكن فيها كمداو جراحاته يحتمى قليلاً مخافة ما يكره طويلاً ، ويصبر على شدة الدواء مخافة طول البلاء ، فاحذر هذه الدار الغرارة الخيالة الخداعة التى قد تزينت بخدعها وفتنت بغرورها ، وخيلت بآمالها ، وشوقت لخطابها ، فأصبحت كالعروس المجلوة ، فالعيون إليها ناظرة ، والقلوب عليها والهة ، والنفوس لها عاشقة ، وهى لأزواجها كلهم قاتلة ، فلا الباقى بالماضى معتبر ، ولا بالأول مزدجر ، والعارف بالله حين أخبره عنها مدكر ، فعاشق لها قد ظفر منها بحاجته فاغتر وطغى ونسى المعاد فشغل فيها لبه . حتى زلت عنها قدمه فعظمت ندامته ،

وكبرت حسرته واجتمع عليه سكرات الموت وألمه ، وحسرات الفوت ونغصه ، فذهب منها فى كمد ، ولم يدرك منها ما طلب ، ولم يرح نفسه من التعب ، فخرج بغير زاد ، وقدم على غير مهاد ، فاحذرها ياأمير المؤمنين ، وأسر ما تكون فيها ، واحذر ما تكون لها ، فإن صاحب الدنيا كلما اطمأن منها إلى سرور أشخصته إلى مكروه ، السار فيها غذاء ضار ، وقد وصل الرخاء منها بالبلاء ، وجعل البقاء فيها إلى فناء فسرورها مشوب بالحزن ، لا يرجع منها ما ولى فأدبر ، ولا يدرى ما هو آت فينظر ، أمانيها كاذبة وآمالها باطلة وصفوها كدر وعيشها نكد ، فلو كان الخالق لها لم يخبر عنها خبراً ، ولم يضرب لها مثلاً ، لكانت قد أيقظت النائم ، ونبهت الغافل فكيف وقد جاء من الله عز وجل عنها زاجر . وفيها واعظ فما لها عند الله عز وجل قدر ولا وزن . وما نظر إليها منذ خلقها ، ولقد عرضت على نبينا ﷺ بمفاتيحها وخزائنها لا تزن عند الله جناح بعوضة فأبى أن يقبلها . وكره أن يحب ما أبغض الله خالقه . أو يرفع ما وضع مليكه فزواها عن الصالحين اختباراً ، وبسطها لأعدائه اغتراراً ، فيظن المغرور بها القادر عليها أنه أكرم بها ونسى ما صنع الله بمحمد ﷺ حين شد الحجر على بطنه .

وقال الحسن أيضاً : ابن آدم ،لا تعلق قلبك فى الدنيا فتعلقه بشر معلق ، اقطع حبالها ، واغلق أبوابها ، حسبك ياابن آدم منها ما يبلغك المحل .

زهـــرة الـدنيــا وإن أينعـــت فإنهــا تســقى بمــاء الــزوال

يامن هو على محبة الدنيا متهالك . أما علمت أنك عن قليل هالك ؟ أما تيقنت أن الدنيا محبوب تارك ؟ أين الوالدون وما ولدوا ؟ أين الجبارون وأين ما قصدوا ؟ أين أرباب المعاصى على ماذا وردوا ؟ أما جنوا ثمرات ما جنوا وخصدوا ؟ أما قدموا على أعمالهم فى مآلهم ووفدوا ؟ أما خلوا فى ظلمات القبور بكوا والله وانفردوا ؟ أما ذلوا وقلُّوا بعد أن عتوا ؟ أما طلبوا زاداً يكفى فى طريقهم ففقدوا ؟ أما حل الموت فحل ما عقدوا ؟ عاينوا والله كل ما قدموا ووجدوا ، فمنهم أقوام شقوا وأقوام سعدوا .

لا والــد خالــد ولا ولــد   كل جليـد يخونــه الجلـد
كأن أهـل القبور لـم يسكنوا الد   ور ولـم يَحْـىَ منهـم أحـد
ولـم يكونـوا إلّا كهيئتهـم   لـم يولـدوا قبلها ولـم يلـدوا
يا من نعي من مضى كذلك غدا   تُنعـى فبـادرِ فقـد أتـاك غـد
يا ناسـى المـوت وهـو يذكـره   مالـك بالمـوت إذ أتـاك يـد
دارك دار يمــوت ســاكنها   دارك يُبْلِـى جديدَهـا الأبـدُ
تبكى على من مضى وأنت غدا   يُورِدُك الموتُ فى الذى وردوا
لو كنت تدرى ماذا يريد بك المـ   ـوتُ لأبكى جفونَك السهدُ[1]

أين الذين ملكوا ونالوا ؟ وستئول إلى ما إليه آلوا . هذا مصيرنا يا معاشر الغافلين ، واللحود بيوتنا بعد الترف واللين والقيامة تجمعنا وتنصب الموازين ، والأهوال عظيمة فأين المتفكر الحزين ؟

﴿ إنَّ ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين ﴾[2] .

يا رهين الآفات والمصائب . يا أسير الطارقات النوائب ، إياك والآمال الكواذب ، فالدنيا دار ولكن ليست لصاحب ، أما أرتك فى فعلها العجائب ؟! فيمن مشى فى المشارق والمغارب ، ثم أرتك فيك شيب الذوائب ، إن سهام الموت لصوائب ، لا يردها محارب ولا يفوتها هارب ، تدب إلينا دبيب العقارب . بينا نسمع صوت مزهر صار صوت نادب ، ياأسير، حب الدنيا إن قتلتك من تطالب ، كأنك بك بت فرحاً مسروراً فأصبحت ترحاً مثبوراً ، وتركت مالك لغيرك موفوراً ، وخرج من يدك فصار للكل شورى ، وعاينت ما فعلت فى الكتاب مسطوراً ، وعلمت أنك كنت فى الهوى مغروراً ، واستحالت رِقَّةُ الصبا فعادت دبوراً ، وأسكنت لحدا تصير فيه مأسوراً ، ونزلت جدثاً خرباً إذ تركت قصراً معموراً ، ودخلت فى خبر كان .

---

(١) الأبيات لأبى العتاهية .
(٢) سورة الأنعام ، آية : ١٣٤ .

﴿ وكان أمر الله قدراً مقدورا ﴾[1] .

وما هـذه الدنيـا بـدار إقامـة
فيحـزن فيهـا القاطـن المترحـل
هـى الـدار إلا أنهـا كمفـازة
أنـاخ بها ركب وركب تحملـوا
وإنا لمـن مـر الجديدين فى الوغى
إذا مـر منهـا جحفـل كـر جحفـل
تجـرد نصـلا والخلائـق مفصـل
وتنبـض سـما والبريـة مقتـل
وما خلفنـا يَبقـى مفـر لهـارب
فكيـف لمـن رام النجـاة التحيـل
وكل وإن طـال الثـواء مصـيره
إلى مـورد ماعنـه للخلـق معدل

الموت مسرع مجد غير رائث . والأموال عن قليل تمضى للوارث . وكأنك بوقوع الحادثات وحصاد الحارث ، يا طويل الأمل ، هل قلبك لابث ؟ لا تسمعن المحال فلست بماكث ، يا مطالباً ، بالجد وهو لاعب عابث ، يا معاهداً ، باللسان والعزم ناكث ، يا من ، أعماله إذا فتشت خبائث .

أخلـق الـدهـر الشباب الحسنا
ما أظـن المـوت إلا قـد دنـا
قـد قطعنـا فـى التصـابى برهـة
وجـررنـا فـى الذنـوب الرسنا
وركبنـا غينـا جهـلا بـه
فـوجـدنـاه علينـا لا لنـا
وشـربنا الـدون بالديـن فمـا
غـدر من قـد بـاع بيعـاً غبنـا

(١) سورة الأحزاب ، آية : ٣٨ .

لقد بان السبيل ولاح المنهج ، فما للقلب عن الهدى قد عرج ، أما يزعجك الترهيب ؟ أما يشوقك الترغيب ؟ إلام تروغ عن النصح روغان الذيب ؟ وتلفت إلى أحاديث المنى الأكاذيب ، قف على باب : ﴿ **وإنْ كنا لخاطئين** ﴾ لتسمع : ﴿ **لا تثريب** ﴾ . من التوفيق رفض التوانى ، ومن الخذلان مسامرة الأمانى .

أيها المتيقظون وهم نائمون ، أتبنون ما لا تسكنون وتجمعون ما لا تأكلون ؟ . كونوا كيف شئتم فستنتقلون ﴿ **ثم إنكم بعد ذلك لميتون** ﴾ . يا مقيمون سترحلون .. يا مستقرون ما تتركون .. يا غافلون عن الرحيل ستظعنون .. أراكم متوطنين تأمنون المنون ﴿ **ثم إنكم بعد ذلك لميتون** ﴾ .

طول نهاركم تلعبون ، وطول ليلكم ترقدون ، والفرائض ما تؤدون ، وقد رضيتم عن الغالى بالدون ، لا تفعلوا ما تفعلون : ﴿ **ثم إنكم بعد ذلك لميتون** ﴾ . أما الأموال فتجمعون ، والحق فيها ما تخرجون ، وأما الصلاة فتضيعون ، وإذا صليتم تنقُرون . أترى هذا إلى كم يكون ؟ ﴿ **ثم إنكم بعد ذلك لميتون** ﴾ .

أين العتاة المتجبرون ؟ أين الفراعنة المتسطلون ؟ . أين أهل الخيلاء المتكبرون ؟ . قدروا أنكم صرتم كهُمْ .. أما تسمعون ﴿ **ثم إنكم بعد ذلك لميتون** ﴾ .

ما نفعتكم الحصون .. ولا رد المال المصون .. هب زعزع الموت فكسرت الغصون .. قدروا أنكم تزيدون عليها ولا تنقصون ﴿ **ثم إنكم بعد ذلك لميتون** ﴾ .

تقلبوا من اللذات فى فنون .. وأخرجهم البطر إلى الجنون ، فأتاهم ما هم عنه غافلون ..

﴿ **كم تركوا من جنات وعيون** ﴾ . ﴿ **ثم إنكم بعد ذلك لميتون** ﴾ .

لو حصل لكم كل ما تحبون .. ونما جميع ماتؤثون .. ونلتم من الأمانى ما تشتهون .. أينفعكم حين ترحلون ؟ . ﴿ **ثم إنكم بعد ذلك لميتون** ﴾ . إلى

متى وحتى متى تنتصحون وأنتم تكسبون الخطايا وتجترحون ؟ . أأمنتم وأنتم تسرحون من هلاك فلا تبرحون ؟ ﴿ **ثم إنكم بعد ذلك لميتون** ﴾ .

لا تفرحوا بما تفرحون .. فإنه لغيركم حين تطرحون .. وإياكم من يراكم تمرحون .. قد خسرتم إلى الآن فما تربحون . ﴿ **ثم إنكم بعد ذلك لميتون** ﴾ .

ولا يظن بعض الناس أن المقصد من الترهيب فى الدنيا ، هو البطالة والتقاعس ، لقد خابوا فى تصوراتهم ، فالإسلام يعشق الجمال ، ويقدس العمل ، ويحث عليه ، ويرهب من العطالة .. فدعا إلى تعمير الأرض وإصلاحها ، وزراعة الأشجار ، والإنتاج الوفير .. إلخ . قال تعالى : ﴿ **ولا تنس نصيبك من الدنيا** ﴾[1] . وأيضاً يدعو إلى المزاح البرىء ، والترويح عن القلب ، لأنه يصدأ كما يصدأ الحديد .

ولقد بدأ التصوف السنى زهداً ثم أصبح علماً نظرياً تقابله قواعد عملية ، وتمسك أصحابه بالمضمون الإسلامى الخالص ، فلم يقحموا فى آرائهم نظريات أجنبية دخيلة ، ولم يسمحوا بتسرب أدنى مخالفة لتعاليم دينهم الحنيف ، ونادوا بالمبدأ القرآنى : ﴿ **وأتوا البيوت من أبوابها** ﴾ ، وطالبوا بدخول التصوف من باب الدين ، ودخول الحقيقة من باب الشريعة ، فالشريعة هى الباب الذى يدخل منه الجميع ، والحقيقة لا يصل إليها إلا الصفوة[2] .

* * *



(١) سورة القصص ، آية : ٧٧ .

(٢) ابن تيمية وموقفه من الفكر الفلسفى ـ د. عبد الفتاح أحمد فؤاد طبع الهيئة (١٩٨٠) ص ٢٣٥ .

إبداع عالم

وبعد .. فهذه هي الدنيا ، وتلك حقيقتها ، بعيداً عن آراء الذين لطخوا وجهتها ، فكن ملتزماً بدينك ، مستمسكاً بسنة نبيك ، آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر .

ونصيحتى أخذ علوم الإسلام من منابعها الأصلية ، فلا يلتفت إلى البدع والخرافات ، وهأنذا أعرض عليك إبداع عالم هو الفقيه العلّامة ابن قيم الجوزية ، حينما يتكلم فى التصوف ، وبعدها ستجد أنك لابد أن تأخذ علوم الإسلام من منابعه (أى من علمائه) ، وليس من جهلاء المتصوفة .

يقول ابن القيم : قرأ قارىء بين يدى السرى :

﴿ وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً ﴾[1] .

فقال السرى : تدرون ما هذا الحجاب ؟ هو حجاب الغيرة ، ولا أحد أغير من الله ، فمن عرفه وذاق حلاوة قربه ومحبته ، ثم رجع عنه إلى مساكنة غيره : ثبط جوارحه عن طاعته ، وعقل قلبه عن إرادته ومحبته ، وأخره عن محل قربه ، وولاه ما اختاره لنفسه .

وقال بعضهم : احذروه ، فإنه غيور ، لا يحب أن يرى فى قلب عبده سواه .

ومن غيرته : أن صفيه آدم لما ساكن بقلبه الجنة ، وحرص على الخلود فيها ، أخرجه منها . ومن غيرته سبحانه : أن إبراهيم خليله لما أخذ إسماعيل شعبة من قلبه أمره بذبحه ، حتى يخرج من قلبه ذلك المزاحم .

(١) سورة الإسراء ، آية : ٤٥ .

إنما كان الشرك عنده ذنباً لا يغفر لتعلق المشرك به وبغيره . فكيف بمن تعلق قلبه كله بغيره ، وأعرض عنه بكليته ؟

إذا أردت أن تعرف ما حل بك من بلاء الانفصال ، وذل الحجاب ، فانظر لمن استعبد قلبك واستخدم جوارحك ، وبمن شغل سرك ، وأين يبيت قلبك إذا أخذت مضجعك ؟ وإلى أين يطير إذا استيقظت من منامك ؟ فذلك هو معبودك وإلهك ، فإذا سمعت النداء يوم القيامة : لينطلق كل واحد إلى من كان يعبده ، انطلقت معه كائناً من كان !

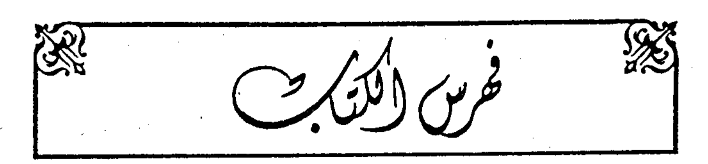
لا إله إلا الله ، ما أشد غبن من باع أطيب الحياة فى هذه الدار المتصلة بالحياة الطيبة هناك ، والنعيم المقيم بالحياة المنغصة المنكدة المتصلة بالعذاب الأليم . والمدة ساعة من نهار ، أو عشية أو ضحاها ، أو يوم أو بعض يوم ، فيه ربح الأبد أو خسارة الأبد .

فما هى إلا ساعة ثم تنقضى ويذهب هذا كله ويزول[1]

(تم بحمد الله)



(١) مدارج السالكين (٣ـ٣٢٧) ط بمكتبة السنة المحمدية بالقاهرة .



فهرس الكتاب

الموضـوع | الصفحـة